

في كل شهر عربي

الجزء الثاني	١٢	صفر سنة ١٣٦٠	المجلد الثاني عشر

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد وجدي

الإدارة

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراكات عن سنة

	مليما
داخل القطر	٢٠٠
لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ...	١٠٠
خارج القطر	٣٠٠

ثمن الجزء الواحد ٢٠ مليما داخل القطر و ٣٠ خارجه

([illegible] — ١٩٤١)

فهرس

الجزء الثاني — المجلد الثاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

احتفال الازهر
بعيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام يلقى كلمة قيمة فيه

احتفل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام فى مساء الاثنين ١٠ من فبراير ١٩٤١ بعيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، وأم المسجد أجلاء العلماء ورجال الدولة ، وجمهور من كبار الموظفين والوجهاء وطلاب العلم ، حتى حفل بهم على سعته ، فلما كانت الساعة الرابعة نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام وألقى كلمة انتظمت من مناقب جلالة الفاروق فى كلمات جزلة منتخبة ، وعبارات نغمة منتخلة ، ما نفذ الى القلوب قبل الأسماع ، حتى ضج الحاضرون بالدعاء لجلالته بأن يحفظ الله وجوده ذخرا لمصر والاسلام ، وأن يطيل من أيامه السعيدة حتى تبلغ هذه الأمة فى ظل رعايته كل مناها من الرقى والسؤدد والسلام . ومن أولى من فضيلة الأستاذ الامام بالتحدث عن شمائل جلالته وفضائله فى مثل هذا المقام ؟

قال فضيلته حفظه الله :

تقام فى أنحاء البلاد حفلات كثيرة ، لأغراض مختلفة ، لكن الحفلات التى تقام فى المناسبات الخاصة بصاحب الجلالة الملك فاروق الأول - أعزه الله - لها طابع خاص تمتاز به عن سائر الاحتفالات ، هو طابع الحب الخالص ، والولاء الخالص ، هو الحب الذى يجازى حبه لبلاده ، والإخلاص الذى يجازى إخلاصه لبلاده .

يعرف ذلك من لهم شرف الاتصال ، قليلا أو كثيرا ، بجلالته ، ويدركه الجمهور بالآثار الظاهرة التى تتجدد دائما كلما جد سبب ، وكلما وقع نظره الكريم على شىء يلفت النظر .

تعلمون أن الحفاء فى مصر منتشر بين الطبقات الفقيرة من طبقات العمال والفلاحين ، وتعلمون أنه داء قديم وقعت عليه من قبل أنظار ولاة الامور ، وأنظار الأغنياء ، ولم تتحرك نفس أحد لعلاجه ، ولم تهز الأريحية أحدا لتخفيفه أو القضاء عليه . وقد سمعتم أخيرا أن جلالة الملك الصادق فى بره وإحسانه ، وجه عنايته الى هذا الموضوع ، فرصد له مبلغا دعا الناس الى القدوة ، والى انهمار سيل التبرعات للمشروع .

مسألة قد تبدو حقيرة ، لكنها جليلة الشأن بآثارها ، وبما تدل عليه . فهى فضلا عن أنها تخفف آلام البؤساء والمعوزين ، وتزيل عن مصر هذه الوصمة من العار ، تدر خيرا كثيرا على جميع الصناعات المتعلقة بالجلود ، وتزيد فى عدد عمال هذه الصناعات ، فتخفف ألم البطالة عن المتعطلين ، وتنبه الموسرين الى واجبهم نحو الفقراء وأعمال البر العامة .

وهى أيضا تدل على شدة اليقظة والانتباه من جلالته لأحوال رعيته . والتنبه الى الأمور الصغيرة أمارة التنبه الى كبريات الحوادث ، والى العظيمات من الأمور .

أيها الإخوان من العلماء ، والأبناء من الطلبة : لا تعجبوا إن قلت لكم : إنه شرفنى مرات بإلقاء أسئلة دقيقة علىّ فى طريق التعليم والتعلم ، وفهم الأغراض العامة من الدين ، وفى طريق استفادة الأمة من أحكام دينها ، واستفادة جمهور الأمة من علماء الدين . فهو ـ أعزه الله ـ شديد العناية بأمركم ، كما أنه شديد العناية بأمر غيركم .

وجدت فى نفسه الكريمة مرة من المرات ، شيئا من الطرق التى تتبع فى بعض المسائل العامة ، والتى لا تأبى قواعد الدين أن تغير بطرق أخرى أسهل منها . ووجدته شديد الإشفاق على تلامذة المكاتب والمدارس ، وعلى غيرهم ممن لا يحسنون قراءة القرآن فى المصاحف ، بسبب صعوبة قراءة الرسم العثمانى عليهم . وسألنى هل تأبى قواعد الدين العامة إلا هذه الطريقة ؟ فقلت : لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ، وسنجد فى آراء بعض سلف الأمة ما يساعد على هذه المشكلة ، ويحقق هذه الرغبة السامية .

لجلالة المليك ـ حفظه الله ـ وللأمة آمال جسام فى نهضة الدين وطلاب العلوم الدينية ، هى الواجبات التى يفرضها الدين ، ويطلبها الوطن ، ويدعو اليها الأمل الذى تتشرفون بالانتساب اليه . فان لم تحققوا هذه الآمال فقد جلبتم على أنفسكم اللوم ، وجنيتم على العلم . والإخلاص للعلم ، والإخلاص لله ، هما أساس النجاح ، وسر الفلاح .

وإن نفس أحدنا لتتضاءل أمامه كلما التفت بفكره فرجع الى ذلك الجهد الجبار ، والآثار الخالدة التى تركها أسلافنا فى أصول الفقه وأصول الدين ، وفى الفقه واللغة وفروعها ، وفى غير ذلك ، مما يثير العجب ، ويدعو الى أجل التقدير . حاولوا الوصول الى أقصى أسرار الدين وأسرار اللغة ، وأحاطوا ذلك كله بسور من القواعد الجليلة ، وحاولوا تقريب ذلك كله الى الناس بكل ما عرفوه من الأساليب .

فاذا لم يكن لنا مطمع فى زيادة هذه الثروة ، فلا أقل من أن يكون مطمعنا حفظها وفهمها وتقريبها الى الناس . ذلك يكون بأن توهب النفوس للعلم ، وأن تخلص لله .

أسأل الله أن يديم للبلاد وللعلم وللدين ، صاحب الجلالة الملك فاروقا الأول ، وأن يرعاه برعايته ، ويمده بعونه ، ويؤيده بتوفيقه ، إنه سميع الدعاء .

تفسير سورة الحديد

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

« سبح لله ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » :

سبّحته : بعّدته عن السوء ، مأخوذ من سبح إذا ذهب فى الماء وأبعد .

و « ما فى السموات والأرض » : ما هو مستقر فيهما ، وما هو متصل بهما على أى نحو من أنحاء الاتصال ؛ فهو عبارة عن جميع الموجودات علوية وسفلية . والآية على هذا مساوية للآية الأخرى : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » . فجميع الموجودات تنزه الله سبحانه عما لا يليق بذاته وبصفاته وبأفعاله وأحكامه ، وتدل على أنه الواحد الأحد ، المتصف بجميع صفات الكمال ، المبرأ عن سمات النقص ؛ وتدل على أن أفعاله صادرة عن ذاته على وفق العلم ومقتضى الحكمة ، وعلى أن جميع ما يصدر عنه من الأحكام يصدر على حسب العلم والحكمة لخير العباد ، وفق النظام العام الذى قدره .

والأصل فى معنى سبح : نطق بسبحان الله أو غيرها مما يدل على التنزيه ؛ فهل هذا هو المراد من قول الله سبحانه : « سبح لله ما فى السموات والأرض » ، أو هو محمول على معنى آخر غير هذا ؟ للعلماء فى هذا خلاف ؛ ذهب بعضهم الى حمله على الحقيقة ، وأن كل موجود يسبح تسبيحا اختياريا بعبارة تدل على التسبيح ، وأننا نفقه بعض هذه العبارات كالعبارات الصادرة عن الانسان ، والصادرة عن الملائكة ، ولا نفقه بعض هذه العبارات كالعبارات الصادرة عن الجماد وبعض أنواع الحيوان . والدليل على ذلك قوله سبحانه : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » ؛ فقد أثبت سبحانه لكل شىء تسبيحا ، وثبت أننا نفقه بعضه ولا نفقه بعضه ؛ ولو كان هذا التسبيح اعتباريا يرجع الى الدلالة العقلية

لما كان لهذا التقسيم وجه ، فإن جميع الناس متساوون فى إمكان إدراك الدلالة العقلية ، وهى دلالة الموجودات على موجدها . وأكثر الصوفية على هذا الرأى .

وقد استبعد جمهور العلماء أن تكون للجمادات تسبيحات اختيارية لا نفقهها ، وأن تكون للحيوانات تسبيحات اختيارية لا نفهمها ، فصرفوا اللفظ عن ظاهره الى معنى آخر ، فالأنفس والآفاق والسموات والأرض وما فيها من دقة الصنع ، والحكمة العالية فى الوضع ، والأسرار الباهرة فى الوجود ، والسنن التى يفنى الزمان قبل أن يتناولها الادراك « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » ، هذا كله يدل دلالة قاطعة ، وإن كانت متفاوتة حسب تفاوت العقول ودرجاتها ، على إله منزه عن النقص فى ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه ؛ إله واجب الوجود ، يشرق وجوده على جميع الموجودات ، ويشرق علمه على جميع المعلومات . وهذه الدلالة هى التسبيح المشار اليه بقول الله : « سبح لله مافى السموات والأرض » . ولما كان بعض الناس لم يدرك هذه الدلالة وأنكر الإله والخالق ، صح أن يقول الله سبحانه : « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » أى لا يفقه بعضكم هذا التسبيح . وتذييل الآية بقوله سبحانه : « وهو العزيز » الذى يدل على القهر ، يشير الى أن هذا التسبيح قهرى ، والتسبيح القهرى هو تسبيح الدلالة .

وينبغى أن يعلم أن من الدلالات ما هو اختيارى يقع بارادة الدال كدلالة النطق والاشارة والكتابة عند الانسان ، ومنها ما هو غير اختيارى كدلالة المصنوع على الصانع ، والمخلوق على الخالق . والدلالة الثانية لا يعرض لها الكذب ، أما الأولى فهى محتملة للصدق والكذب .

وكل ما فى الوجود يدل دلالة عقلية على الله سبحانه ، وعلى تنزيهه ، يشترك فى ذلك الموجودات العاقلة وغير العاقلة ؛ وللموجودات العاقلة عبارات تدل على التنزيه أيضا ؛ لا خلاف فى هذا كله ، وإنما الخلاف فى أن الجمادات والحيوانات غير الناطقة وما أشبه ذلك هل تسبح بعبارة خاصة بها تدل على تنزيه الله كما يسبح الانسان ، فيكون لها تسبيح اختيارى وتسبيح غير اختيارى ، أولا تسبح على هذه الصفة ، فلا يكون لها إلا تسبيح غير اختيارى هو تسبيح الدلالة ؟

وقد ذكر التسبيح فى هذه السورة بلفظ الماضى ، وكذلك جاء فى سورة الحشر وسورة الصف ، وذكر فى سورة الجمعة وسورة التغابن بلفظ المضارع . والماضى يدل على الحصول الى زمان الإخبار ، والمضارع يدل على الاستمرار فى الحال والاستقبال ، فاكتنفت الصيغة بقسميها جميع الأزمنة ، ودل هذا على أن التسبيح يلازم الموجودات فى جميع الأوقات ، وأن ذلك شأنها وديدنها ودأبها ، ولفظ سبح يتعدى بنفسه ، وقد عدى هنا باللام ؛ ونظير ذلك نصحته ونصحت له ، زيدت اللام لتقوية وصل الفعل بالمفعول .

« وهو العزيز الحكيم » : العزة حالة تمنع صاحبها من أن يغلب ، مأخوذ من قولهم أرض عزاز أى صلبة . والحكمة : إصابة الحق بالعلم والعقل . وإذا أسندت الى الله سبحانه كان معناها معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام .

« له ملك السموات والأرض ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير » :

الملك بالضم : ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم والملك ؛ فهو أخص من الملك .

يحيي ويميت : يخلق الحياة والموت ، يفيض الحياة على الميت فيحيا ، ويسلبها عنه فيموت .

والقدير : البالغ القدرة .

بعد أن بيّن الله سبحانه أن جميع الموجودات تنزهه عن كل نقص ، بيّن أنه الغالب القاهر الذى لا ينازعه شيء ؛ أوجد كل شيء بقدرته ، وأحسن صنعه بحكمته ، لولا جوده ما وجد موجود ، ولولا علمه الواسع وحكمته لما وجد هذا النظام الذى تحار فيه العقول وتضل الأفهام « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » . فهو المتصرف فى السموات والأرض وما فيهما تصرف المالك الضابط ، المحكم فى تصرفه ، القادر القاهر فى ملكه ؛ ومن أظهر آثاره الإحياء والإماتة ؛ فهو الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ؛ وهو الذى يفيض على الأحياء الحياة ويسلبها عنهم فى الأوقات المقدرة حسب علمه . وهذا الذى صرح به من صفاته لازم للدلالة العقلية التى تدل بها الموجودات على تسبيحه ؛ ولذلك جاء بها عقب التسبيح ؛ وستجيء صفات أخرى فى الآيات الآتية .

« هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم » :

الأول : السابق فى الوجود على جميع الموجودات . والآخر : الذى يبقى بعد فناء جميع الموجودات . أما أنه أول بهذا المعنى فأمره ظاهر ، لأنه واجب الوجود ، ووجوده مقتضى ذاته ، أو هو الوجود الحق وكل ما عداه فهو هالك فى ذاته يحتاج فى وجوده الى إشراق الوجود الحق ، وليس هناك ما يسبق الوجود الحق ، ولا ما يساوى الوجود الحق . وأما أنه آخر بهذا المعنى فليس موضع اتفاق ، وأكثر العلماء على خلافه ؛ فمن الناس من ذهب الى أن كل شيء يفنى ويبقى الله وحده « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » ، « كل شيء هالك إلا وجهه » ؛ والله تعالى يوصل الثواب الى أهل الثواب ، والعقاب الى أهل العقاب ، ثم يفنى الجنة وأهلها ، والنار وأهلها ، والعرش والكرسى ، والملك والفلك ، ولا

يبقى مع الله شيء أبدا ، ولا يعيد بعد ذلك شيئا أبدا ، وكما كان الله ولا شيء معه سيكون الله ولا شيء معه أبد الآباد . وهذا المذهب ، إن صح ، هو تفسير الآخر . ومن الناس من جرى على هذا الرأى وخالف فى الإعادة ، فقال : إن الله بعد أن يفنى كل شيء ويبقى وحده وبذلك يكون آخرا (١) يعيد كل شيء مرة أخرى ويبقيها أبدا ؛ وقالوا : مما لا شبهة فيه إمكان بقاء العالم . وهناك إجماع من المسلمين على أبدية الجنة والنار ؛ فالآخرية التى وصف الله بها نفسه لا تتحقق إلا بعد فناء الجميع وبقائه وحده جل وعلا ؛ وأبدية الجنة والنار المجمع عليها لا تتحقق إلا إذا أعيدت الجنة وأهلها ، والنار وأهلها ، وبقى الكل بعد ذلك أبد الآباد .

وهناك آراء فى تفسير الآخر غير منظور فيها الى فناء الجنة وأهلها والنار وأهلها ، تدور كلها على اعتبار الأولية ذاتية كما سبق ، والآخرية اعتبارية . فمنها أنه وصف نفسه بأن المرجع والمصير إليه ، فقال : « وإليه ترجع الأمور » ، وفى آية « وإليه المصير » . ومنها أن أول ما أدركه الانسان ويدركه هو آثار الله سبحانه ، وبهذه الآثار عرف الله ؛ فهذه الموجودات أدلة عند الإنسان فى الحس ، ومنها توصل بالنظر والدليل الى معرفة الله ؛ فالله سبحانه هو الآخر عند العقل .

وقال حجة الاسلام : الأول يكون أولا بالإضافة الى شيء ، والآخر يكون آخرا بالإضافة الى شيء ، ولا يتصور أن يكون الشيء الواحد من جهة واحدة أولا وآخرا بالإضافة الى شيء واحد ؛ فإذا نظرت الى سلسلة الموجودات المترتبة فالله سبحانه بالاضافة إليها أول ، لأنه هو الموجود بذاته وجميع الموجودات استفادت وجودها منه ؛ وإذا لاحظت ترتيب السلوك فى المعرفة وراقبت منازل السالكين فهو تعالى آخر ما ترتقى إليه درجات العارفين ، وكل معرفة تحصل قبل معرفته فهى مرقاة الى معرفته ، ومعرفته هى المنزل الأقصى ، سبحانه ، فهو أول بالاضافة الى الوجود ، وآخر بالاضافة الى السلوك ؛ سبحانه وتعالى إليه المرجع وإليه المصير . والأول والآخر لا يقالان فى صفات الله سبحانه إلا مزدوجين ؛ وكذلك الظاهر والباطن ، وسيأتى بيانهما .

« والظاهر والباطن » : إدراك كنه الموجودات الممكنة بالعقل عسير أو مستحيل ؛ فما بالك بإدراك الذات الإلهية ، وقد قيل : إن إدراكها هو العجز عن إدراكها ؟ فوجود الله سبحانه تضافرت الأدلة العقلية عليه ، وأجمع عليه الناس ، إلا من أعمى الله بصائرهم . وقد وصفه العلماء الذين لا يعترفون بدين بما هو لائق بذاته ، وحقيق بجلاله ، وبما نكرره نحن اليوم ونتدارسه . ويكاد يكون الاعتراف بالإله الخالق فطريا ضروريا فى غير حاجة الى الدليل . وكنه ذات الإله

---

(١) وعليه تكون الآخرية فى وقت ما ، وليست أبدية كما هى على الرأى الاول .

لا يمكن الوصول اليه بالعقل ، كما أنه لا يمكن إدراك الله أيضا من طريق الحواس . فإذا نظرت اليه من خزانة العقل فوجوده ظاهر ؛ وإذا نظرت اليه من خزانة الحواس فوجوده باطن ؛ كذلك هو باطن فى خزانة العقل من جهة الكنه ، فالله ظاهر الوجود إن طلب بالعقل ، والله باطن إن طلب كنهه بالعقل ، أو طلب بالحواس .

« وهو بكل شيء عليم » : لا يغيب عن علمه شيء ؛ وهذا الصنع الدقيق فى العالم العلوى والسفلى شاهد على أن الذى أبدعه محيط به .

« هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » :

يقال : استوى فلان على عمالته ؛ ومتى عـدى بعلى اقتضى معنى الاستيلاء ، كقوله : « الرحمن على العرش استوى » ؛ وإذا عدى بالى اقتضى معنى الانتهاء إما بالذات أو بالتدبير ، مثل « ثم استوى الى السماء وهى دخان » .

العرش : يقال : عرشت الكرم وعرشه ، إذا جعلت له كهيئة سقف . وسمى مجلس السلطان عرشا اعتبارا بعلوه ، ويكنى به عن العز والسلطان والمملكة .

خلقُ السموات والأرض من آيات الله الكونية الدالة على وحوده وقدرته ورحمته ، وعلمه الواسع ، فيه آيات بينات يبهر الناظرين بعض ظواهرها ، فكيف حال من اطلع على ما فيها من عجائب كشف العلم عن بعضها ، ودل ما عرف على ما لم يعرف ، وهو لا نهاية له ؟

والأجرام السماوية طوائف يبعد بعضها عن بعض بعـداً شاسعا ، ولكل طائفة منها نظام عام ، وأقرب تلك الطوائف الينا ما يسمى النظام الشمسى ، منسوبا الى الشمس التى يفيض نورها فيكون سببا للحياة فى الأرض . وكوكب الشمس يتبعه كواكب مختلفة فى أبعادها ومقاديرها ، وقد استقر كل كوكب فى موضعه ومداره ، وحفظت النسبة بينه وبين غيره من الكواكب ؛ كل ذلك بسنن إلهية أوجدها القادر الحكيم ، ولو لا هذه السنن لتفلتت هذه الكواكب السابحة ، وصدم بعضها بعضا ، وهلك العالم .

وقد قلنا إن المراد بالسموات والأرض هو الموجودات ؛ وقد تطلق السموات على ما دون العرش من العالم العلوى ، وبخاصة إذا وصفت بالسبع .

وفى هـذه الآية بين الله سبحانه أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ؛ وقال فى آية أخرى : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين . وجعـل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعـة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا

بمصابيح ، وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم » . فني هذه الآية الأخيرة تفصيل لما أجمل فى آية الحديد ، حيث جعل للسموات يومين ، وجعل لخلق الأرض يومين ، ثم أوجد الرواسى فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى يومين ، فيكون مجموع ما أخذته الأرض وما فيها أربعة أيام ؛ وذلك قوله : « فى أربعة أيام » ، أى فعل ذلك كله فى أربعة أيام . وجملة ما أخذته السماء يومان : « فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها » .

ولا يعقل أن تكون الأيام الستة فى هذه الآية من جنس أيامنا ؛ فان هذه الأيام وجدت بعد خلق الأرض ؛ ولا بد أن تكون من أيام الله التى يعلمها هو ؛ وقد قال فى يوم القيامة : « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » ، وقال فى آية أخرى : « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » . وقد تكون السنة سنة نورية . فالأيام مقادير لأطوار مرت على الخليقة يعلمها الله سبحانه وتعالى ، ويجب أن نقف عن تحديدها ، فانها لم تحدد بأخبار صحيحة ؛ والله سبحانه يقول : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » . وقد روى عن أبى هريرة ما يدل على أن الأيام من أيامنا ؛ وتكلم فيه البخارى وغيره من الحفاظ ، وجعلوه من رواية أبى هريرة عن كعب الأحبار ، ولم يجعلوه مرفوعا . والذى قاله البخارى هو الذى يجب التعويل عليه . وفى الاسرائيليات شىء كثير ، وفيها بيان لما صنع فى أيام الأسبوع ؛ ولو كانت هناك أية فائدة فى بيان جنس الأيام وفى بيان ما صنع فى الأيام لأخبرنا الله سبحانه بذلك ، فهو الجواد . والعبرة إنما هى فى الخلق وفى جعله أطوارا . وقد أرشد الله سبحانه فى آية فصلت الى أنه استوى الى السماء وهى دخان ؛ وقال فى سورة الأنبياء : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شىء حى ، أفلا يؤمنون » . وهذا يدل على أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة وفصل بعضها عن بعض ، وهى مادة تشبه الدخان ، ومن هذه المادة خلق السموات ، بدليل « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها » ؛ ويدل على أن مادة الدخان بعد الفصل تحول جزء منها الى ماء ، وبعد ذلك تكونت اليابسة والرواسى ، وبعد ذلك ظهرت الحياة والأقوات . فالأطوار التى مرت على الأرض : الدخان ، ثم الماء ، ثم اليابسة ، ثم الأحياء والأقوات .

ونحن نؤمن بأن الله خلق السموات والأرض فى ستة أطوار يعلمها هو ؛ ونؤمن بأن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقهما ؛ ونؤمن بأن خلق السموات فى يومين ، وخلق الأرض وما فيها فى أربعة ؛ ونؤمن بأن كل شىء حى فمن الماء خلقه ، وأن كل شىء خلقه بقدر ، وما أنزل شيئا إلا بقدر معلوم . وإذا كشف العلماء عن تفاصيل فى مادة الخلق وأطواره لا تنافى ما قرره القرآن فلنا أن نقبلها . وما قيل حتى الآن لا يخرج عن دائرة الظنون والفروض ، فلا يجوز لنا أن نرد به شيئا من القرآن .

« ثم استوى » : سئل مالك عن قوله : « استوى على العرش » كيف استوى ؟ فوجد وجدا شديدا وأخذته الرُّحضاء ، ولما سُرّى عنه قال : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأخاف أن تكون ضالا ؛ وأمر به فأخرج . وروى عنه أنه قال له : استوى كما وصف نفسه ، وكيف ، عنه مرفوع ، وأنت رجل سوء صاحب بدعة .

ونحن نؤمن بأنه استوى على العرش كما وصف نفسه ؛ وعرشه لا يعلمه البشر إلا بالاسم ، وليس حاملا له كما يتوهمه الناس ، وتعالى الله عن أن يكون محمولا أو فى جهة أو حيز ، وتعالى الله عن سمات المخلوقين : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » . والقرآن يدل على أن العرش لم يزل مستعليا منذ وجد ، بدليل قوله : « وكان عرشه على الماء » . وأقرب ما يقال فى الاستواء عند إرادة التأويل أنه التصرف فى الموجودات والتمكن منه مع عدم المنازع والمغالب ، عبر عنه بما يفهمه الناس من استواء الملك على العرش وتمكنه من التصرف فى شؤون الملك . وقد نزل القرآن على أساليب العرب ومناحيها ، فمنه المجاز ومنه الكناية ، والعقل هو الذى يصرف الألفاظ عن ظاهرها الى ما يليق بجلاله . ولا يجوز أن يتحكم أولئك الجهلة فى تفسير القرآن والحديث النبوى ويحملوا الألفاظ على ظاهرها فيوقعوا الناس فى التجسيم ولوازم التجسيم . ولولا طائفة من علماء السلف تحقق فيهم الذوق العربى ففهموا دقائق العربية وأسرارها ، ووجد عندهم العقل الراجح والعلم الناضج فى معرفة الموجودات وطرق الاستدلال ، لضل الناس فى فهم القرآن ومناحيه وأسراره ، ودخل فى العقائد مالا يريده الله ولا يريده رسوله من الزيغ ، ودخل فى التشريع مالا يريده الله من مجافاة مصالح العباد .

« يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » :

الولوج : الدخول فى مضيق . والعروج : ذهاب فى صعود . ولفظة مع تقتضى الاجتماع فى المكان أو الزمان أو الشرف أو الرتبة ؛ وقد تقتضى معنى النصرة فيكون ما يضاف اليه لفظ مع هو المنصور ، نحو « إن الله معنا » « إن الله مع الذين اتقوا » .

ويقال البصر للجارحة المعروفة ، ولقوة الإبصار التى فيها ؛ ويقال لقوة القلب المدركة بصيرة ؛ ويقال لها بصر أيضا .

يعلم الله سبحانه كل ما هو فى الأرض من جامد وسائل ، وكل ما يخرج منها من نبات ، وكل ما هو عليها من حيوان وإنسان ؛ ويعلم كل ما ينزل من السماء من مطر وملائكة ورحمة

وعذاب ، وكل ما يصعد إليها من دعاء وملائكة ؛ ويعلم جميع المخلوقات ما خفى وما ظهر ، وهو مع جميع المخلوقات فى كل لحظة ، ولو لم يكن معها فى كل لحظة لفنيت ، فإنه موجدها وبجوده أشرق وجوده عليها ؛ وهو بصير بأعمال العباد ، فإنه قدرها وأرادها قبل أن توجد ، وقد أقدرهم عليها . وقد أجمعت الأمة على تأويل قوله سبحانه : « وهو معكم أينما كنتم » ونفوا أن يكون المراد بها المعية الذاتية ؛ وجعلوها من قبيل التمثيل لإحاطة العلم ، والتصوير لعدم خروجهم عن علمه أينما كانوا . وعن ابن عباس « وهو معكم » : أى عالم بكم . وهذا الإجماع منهم إجماع على وجوب تأويل كل ما أوهم ظاهره تشبيه الله بالمخلوقات .

« لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ » :

له السلطان المطلق ، والحكم النافذ فى السموات والأرض ، وإليه يصير الخلق فيقضى بينهم بحكمه .

« يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » :

قال عكرمة : « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » : قصر هذا فى طول هذا وطول هذا فى قصر هذا . ومعناه أنه يدخل ما نقص من ساعات الليل فى النهار فيجعله زائدا فى ساعاته ، ويدخل ما نقص من ساعات النهار فى الليل فيجعله زائدا فى ساعاته . وفى هذا تنبيه على آثار نعمته وآثار قدرته . واختلاف الليل والنهار وطول هذا بقصر ذاك يجرى بحسبان مطرد فى جميع البلدان والأقطار . ومثله اختلاف الفصول باختلاف مواقع الطول والعرض ؛ وهذا الاختلاف أثر من آثار مقابلة الأرض للشمس وحركتها بإزائها . وفى اختلاف الفصول والليل والنهار منافع للناس واضحة بينة ، وفيها دلائل على قدرة الإله ، ووحدة هذا النظام البديع المطرد ؛ والناس جميعهم يعرفون منافع هذا كله ، وبعضهم يعرف منافعه ويعرف أسبابه . وقد أرشد الله الى ذلك كله بقوله : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب . وكل شىء فصلناه تفصيلا » .

« وهو عليم بذات الصدور » : أى بالنيات الخافية فى الصدور ، وبكل ما يهجس فيها من الخواطر .

حياة رجالات الإسلام

أبو بكر الصديق

— ٢ —

كلما ازداد الباحث إمعانا فى سيرة الصديق الأكبر رضى الله عنه ، ازداد تهيبا لدراسة حياته دراسة علمية تحليلية ، وتصويرها ترجمة تاريخية ، لأن حياة أبى بكر من طراز خاص بين شخصيات عظماء الوجود ، فليس لها ذلك الدوى الذى يطن فى أذن التاريخ لأبطال الحروب ، وقادة الجيوش ، وزعماء الثورات الانقلابية الكبرى فى العالم ، ولكنها شخصية تستمد عظمتها الغامرة من منابع الجلال الروحى الذى اختص به الأنبياء ، وآحاد من أتباعهم يأتون على رءوس مراحل الحياة ، رموزاً لروحانية النبوة ، ومرايا تنعكس على صفحتها ظلال الهداية الإلهية ، ومُثلا حية تحكى للناس تاريخ إشراق شمس الوحى فى آفاق الكون حقبة من الزمن تتصل فيها حلقات الخير والإصلاح .

فهم أقمار الدنيا ، والأنبياء شموسها ، وللشمس قوتها ووهجها ، وللقمر نوره وصفاؤه ، ولولا أشعة الشمس ما أضاء القمر ، وإذا أشرقت الشمس ذابت فى توهجها إشعاعات الكواكب ، واحتجبت أجرامها فى كِسَف وهاجة من تموجات ضوئها ، حتى إذا انحرفت الشمس الى أفق جديد عادت الكواكب سيرتها الأولى نيرة هادية ، تختلف فى قوة التماعها بحسب مواضعها دنواً من مصدر فيضها .

هكذا تنطبع فى النفس صورة أفذاذ الصديقين من حوارى الأنبياء ، ووارثى مقامهم فى الدعوة الى الخير والهدى ، ومرايا أنفسهم فى صفاء السريرة ، ومظاهر تعاليمهم فى سموها ، ومُثل شرائعهم فى تكييفهم بها ؛ فهم أصدق معجزات الرسل ، وأوضحها ، وأوفاها ، وأسرعها انسلاكا الى القلوب ، وأدعاها الى الايمان ، وأهداها الى اليقين ؛ وتاريخ النبوات فى جميع مراحل الحياة مزيل بآيات وشواهد من حياة الصديقين ، ولكنها مغلّفة لا تُقرأ إلا إذا اكتملت أسفار النبوة ، لأنها إعادة لأصدائها ، وتذكير بعبرها ، وتأكيد لحقائقها ، وحفظ لأصولها ، وتثبيت لقواعدها .

ومن ثم كانت هذه العظمة المستسرة فى وداعة الايمان ، والإذعان المطلق فى فناء الذات ، مادامت شمس النبوة مشرقة ، وما دام منبعها فياضا بالحياة ، هى سر الإعجاز فى النبوة ،

وسر العبقرية فى الصديقية ، وهى نفسها — إذا انتقلت شمس النبوة الى أفق الخلود — تلك العظمة الفذة الغامرة ، القوية القاهرة ، التى تتضاءل الى جانبها كل مفخرة لكل عظيم ، وتماع فى تيارها داويات العبقريات .

ذاك أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، نسيج وحده فى عظمته الهادئة ، تلك العظمة التى هى أعظم شاهد على ما صورنا به حياة أفذاذ الصديقين ، صنعه الله على عينه ، فانفلت من أغلال بيئته ، وتسامى عن عادات قومه ، فنشأ فيهم أريبا ، نبيلا ، حكيما ، عاقلا ، كريما ، عطوفا ، يواسى الفقراء ، ويعين الضعفاء ؛ صادق فى شبابه أصفى الناس سريرة ، وأطهرهم نفسا ، فكانت تلك الصداقة صيقل نفسه ، ومغنى أنسه ، ومرهف حسه ؛ آمن حيث كفر الناس ، وأنفق فى سبيل الله حيث أمسك الناس ، لم يكد يعرض عليه صديقه وصفى نفسه أنه مرسل من عند الله ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، حتى أجاب الى الايمان فلم يتلجلج ، وأسرع الى الاسلام فلم يتخلج ، فكانت له ذخرا خالدا فى سجل عظمته على لسان الصادق المصدوق صلوات الله عليه ، فقال متحدثا عن مفخرة الصديقية فى السبق الى الاسلام انسياقا مع الفطرة الطاهرة : « ما دعوت أحدا الى الاسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر » .

فلم يكن شىء أبهج لنفس النبى صلى الله عليه وسلم من إسراع أبى بكر فى استجابته لدعوته ، فسماه الصديق لبداره الى تصديقه فى كل ما جاء به ؛ وكان على بن أبى طالب يحلف أن الله تعالى هو الذى سمى أبا بكر على لسان رسوله صديقاً .

وهذه لعمر الحق أعظم مزايا أبى بكر فى إسلاميته ، وبها كان الصديق أعظم المسلمين ، وأفضل المؤمنين ، لأن أبا بكر كان أنف قومه ، وكان قومه يضربون بعرق قريح الى أرومة قريش أعز العرب ، حتى لقب لصفاء نسبه عتيقا ؛ ذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب ، وابن حجر فى الاصابة : أن مصعبا الزبيرى وطائفة من أهل النسب قالوا : « إنما سمى أبو بكر عتيقاً لأنه لم يكن فى نسبه شىء يعاب به » . وكان وجيها فى العرب ، معروفاً بالخير والبر ، وكان أنسب العرب وأعلم قريش بأيامها ، وكان من أكثرهم مالا ؛ روى أبو داود فى سننه : أنه أسلم وله أربعون ألف درهم . فلم تكن بأبى بكر حاجة الى التماس وسيلة من وسائل السيادة الدنيوية فى غير ما مكن له حظه من أسباب .

فما سر الجاذبية التى عرجت بابن أبى قحافة من جاهلية قومه وبلده الى سماء الاسلام ؟ ذلك السر هو خصيصة عظمة الصديق التى انطوت عليها نفسه منذ عقدت الحياة بينه وبين حبيبه محمد بن عبد الله أواصر الحب وعرى الصداقة مذ كانا شابين يستوحيان فطرتهما فى كراهية ما عليه الناس ، فسرت له منه نفحة إنسانية كان بها أبو بكر ذلك الرجل المصطفى لأول قطرة من غيث الهداية الإلهية ؛ فلما بعث الله محمدا رحمة للعالمين كان أبو بكر أول منازل

تلك الرحمة ، فا من بقلبه وعقله ؛ آمن بقلبه لأنه عرف محمداً صلى الله عليه وسلم فأحبه وصدقه ، وآمن بعقله لأن محمداً صلى الله عليه وسلم أرشده الى كتاب الوجود فقرأ فيه آيات الله شاهدة على عظيم قدرته وجليل حكمته .

وبهذا كان أبو بكر الصديق أول الناس إيمانا ، وأسبقهم إسلاما ، وأرسخهم يقينا . فالذين يذهبون الى أسبقية على بن أبى طالب رضى الله عنه الى الاسلام إنما يعنون إسلام القلب والعاطفة ، لأن عليا كرم الله وجهه كان يوم أن جاء الله بالحق والهدى غلاما يكنفه النبي صلى الله عليه وسلم بتربيته ، ويرعاه بمحبته ، ويخلطه بنفسه ، فمن الطبعى أن تكون روحه وعواطفه وإحساساته وشعوره وسلوكه أسيرة توجيه النبي صلى الله عليه وسلم ، فآمن بقلبه وروحه وعواطفه ومشاعره ، وهى كل ما يملك يومئذ من مدارك ؛ أما إيمان التكليف والعقل فانما يكون إذا استوفى العقل مُنّته التكليفية فى اعتبار الشريعة المطهرة ؛ ولم نعلم أن أحدا من علماء الاسلام زعم أن عليا كرم الله وجهه حين إيمانه صبياً كان مخاطبا بهذا الإيمان خطاب التكليف .

ومهما يكن من أمر فان كثيرا من أئمة الاسلام ذهبوا الى أن أبا بكر رضى الله عنه أول الناس إسلاما ، وفى طليعة الذاهبين الى هذا حبر الأمة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ؛ روى الموثقون من أصحاب السير عن الشعبى أنه قال : سألت ابن عباس : أى الناس كان أول إسلاما ؟ فقال : أما سمعت قول حسان :

إذا تذكرتَ شجوا من أخى ثقة	فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها	بعد النبي وأوفاها بما حملا
والثانىَ التالى المحمودَ مشهده	وأول الناس قِدما صدق الرسلا
وثانى اثنين فى الغار المنيف وقد	طاف العدو به إذ صعّد الجبلا
وكان حِبَّ رسول الله قد علموا	خير البرية لم يعدل به رجلا

وليس استدلال ابن عباس بمجرد شعر حسان ، ولكنه راجع فى الحقيقة الى تصديق النبي صلى الله عليه وسلم وإقراره ، بل استحسانه لشعر حسان ؛ روى ابن عبد البر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان : هل قلت فى أبى بكر شيئا ؟ قال نعم ، فقال : قل وأنا أسمع ، فأنشده هذه الأبيات ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أحسنت يا حسان . وممن ذهب الى ذلك جماعة من التابعين ، منهم ابراهيم النخعى ، وابن الماجشون ، ومحمد بن المنكدر ، والأخنس ، وجزم به القسطلانى فى مواهبه ، فقال : وكان أول ذكر آمن بعدها (السيدة خديجة) صدّيق الأمة وأسبقها الى الاسلام أبو بكر ، فآزره فى الله .

ولعلنا نستشف ما ذهبنا إليه من توجيه أسبقية إسلام أبى بكر من قول محمد بن الحنفية

وقد سئل - كما فى الإصابة - لأى شىء قدم أبو بكر حتى لا يذكر فيهم غيره ؟ قال : لأنه كان أفضلهم إسلاما حين أسلم ، فلم يزل كذلك حتى قبضه الله إليه . وبعض العلماء يذهب الى التوفيق بين الروايات المختلفة ؛ قال الطبرى : الأولى التوفيق بين الروايات كلها وتصديقها ، فيقال : أول من أسلم مطلقا خديجة ، وأول ذكر أسلم على بن أبى طالب ، وهو صبى لم يبلغ ، وكان مستخفيا باسلامه ، وأول رجل عربى بالغ أسلم وأظهر إسلامه أبو بكر بن أبى قحافة . قال القسطلانى فى المواهب : ويؤيد هذا ما روى عن الحسن أن على بن أبى طالب قال : سبقنى أبو بكر الى أربع لم أوتهن : سبقنى الى إفشاء الاسلام ، وقدم الهجرة ، ومصاحبته فى الغار ، وإقام الصلاة ، وأنا يومئذ بالشِّعب ، يُظهر إسلامه وأخفيه .

وهذه الشهادة من أمير المؤمنين أفضل ما يحتج به على مكانة الصديق فى الاسلام ، وأنه أول الناس بعد النبى صلى الله عليه وسلم استطاع أن يجدع أنف الوثنية باظهار التوحيد ، وأن يَجْبَهَ الباطل بصولة الحق ، وأن يغشى الاسلام فى محافل غطارفة قريش ورءوس الشرك ، وأن يقف وحده الى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم يناضل معه فى سبيل تبليغ دعوته ، ويقوم دونه متحملا معه أشد أنواع الأذى ، صابرا محتسبا ، يرى أن أفضل جزاء يناله أن يفدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه حتى يبلّغ دعوة ربه ؛ روى البخارى فى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلف ثوبه فى عنقه ، فخنقه خنقا شديدا ، فجاء أبو بكر فأخذ بمنكبه فدفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ! » . قال العلامة القسطلانى فى مواهبه : وقد ذكر العلماء أن أبا بكر رضى الله عنه أفضل من مؤمن آل فرعون ، لأن ذاك اقتصر حيث انتصر على اللسان ، وأما أبو بكر فأتبع اللسان يدا ، ونصر بالقول والفعل محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقد امتزج الإيمان بروح الصديق وجسمه وحواسه ، فلم يهن لأشد الآلام تصيبه فى سبيل الله ، بل قابلها بفطرته الهادئة الوادعة رضاء بقضاء الله ، وتأييدا لرسول الله ؛ وإذا ثارت نفسه أو غضبت رجولته فإنما هى الثورة لله ، والغضب لدين الله ، لا يبالى ما يلاقيه فى شخصه أو ماله أو أهله ؛ روى ابن عبد البر فى الاستيعاب عن أسماء بنت أبى بكر أنهم قالوا لها : ما أشد ما رأيت المشركين بلغوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : كان المشركون قعودا فى المسجد الحرام ، فتذاكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يقول فى آلهتهم ، فبينما هم كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاموا إليه ، وكانوا إذا سألوه عن شىء صدقهم ، فقالوا : ألست تقول فى آلهتنا كذا وكذا ؟ قال : بلى ، فتشبثوا به بأجمعهم ، فأتى الصريخ الى أبى بكر ، فقيل له أدرك صاحبك ، فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد فوجد رسول الله صلى

الله عليه وسلم والناس مجتمعون عليه ، فقال : ويلكم ! أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ فلهوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على أبى بكر يضربونه ، قالت أسماء : فرجع إلينا فجعل لا يمس شيئا من غدائره إلا جاء معه ، وهو يقول : تباركت ياذا الجلال والإكرام !

وكان أبو بكر رضى الله عنه أول خطيب دعا الى الله تعالى ، وألح فى إظهار الدعوة ، والنبى صلى الله عليه وسلم يعبد الله فى قلة من أصحابه مستخفيا ، فلم يزل به أبو بكر حتى خرج وأظهر أمر ربه ، فنال أبا بكر من الأذى ما كاد أن يأتى على نفسه ، فلم يزده ذلك إلا إيمانا وتثبيتا وحبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ذكر ابن هشام وغيره فى السيرة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل دار الأرقم ليعبد الله هو ومن معه من أصحابه سرا ، ألح أبو بكر رضى الله عنه فى الظهور ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر إنا قليل ؛ فلم يزل به حتى خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الصحابة رضى الله عنهم ، وقام أبو بكر فى الناس خطيبا ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ، ودعا الى رسول الله ؛ فهو أول خطيب دعا الى الله تعالى ؛ فثار المشركون على أبى بكر رضى الله عنه وعلى المسلمين يضربونهم ، فضربوهم ضربا شديدا ، ووطئ أبو بكر بالأرجل وضرب ضربا شديدا ، وصار عتبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بنعلين مخصوفتين ويحرفهما الى وجهه حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه ، فجاءت بنو تيم يتعادون ، فأجلت المشركين عن أبى بكر الى أن أدخلوه منزله ولا يشكون فى موته ، ثم رجعوا فدخلوا المسجد ، فقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة ! ثم رجعوا الى أبى بكر ، وصار والده أبو قحافة وبنو تيم يكلمونه فلا يجيب حتى آخر النهار ، ثم تكلم وقال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فعذلوه فصار يكرر ذلك ، فقالت أمه : والله مالى علم بصاحبك ، فقال : اذهبى الى أم جميل فاسأليها عنه ، وخرجت إليها وقالت لها أن تسأل عن محمد بن عبدالله ، فقالت : لا أعرف محمدا ولا أبا بكر ، ثم قالت : تريدين أن أخرج معك ؟ قالت : نعم ، فخرجت معها الى أن جاءت أبا بكر فوجدته صريعا ، فصاحت وقالت : إن قوما نالوا منك هذا لأهل فسق ؛ وإنى لأرجو أن ينتقم الله منهم ؛ فقال لها أبو بكر رضى الله عنه : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : هذه أمك ! قال : فلا عين عليك منها ، قالت : سالم ! هو فى دار الأرقم ، فقال : والله لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قالت أمه : فأمهلناه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس ، خرجنا به يتكىء علىّ حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرق له رقة شديدة ، وأكب عليه يقبله ، وأكب عليه المسلمون كذلك ، فقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ما بى من بأس إلا ما نال الناس من وجهى ، وهذه أمى برّة بولدها فعسى الله أن يستنقذها بك من النار ! فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاها الى الاسلام فأسلمت » .

وفى هذه القصة غير ما قدمناه ضروب من مفاخر الصديق الاسلامية ، ففيها أن رؤساء المشركين كانوا يرون فى أبى بكر رضى الله عنه شخصية خطيرة عليهم فى مؤازرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك لما يعرفونه عنه من محاسن الشيم وجليل المناقب ، وسعة الثراء ، ورفيع المكانة ، والشهرة فى أحياء العرب ، مما سيكون له أعظم الأثر فى نشر الدعوة الاسلامية ، فكانوا يخصونه بأقصى ألوان الأذى ليفتنوه عن دينه ، ولكن هيهات للباطل أن يصمد طويلا لسطوة الحق وقوة الإيمان !

وفيها إبانة عن مكانة أبى بكر فى قومه بنى تيم ، وشرفه عندهم ، وعظيم منزلته بينهم ؛ فقد غضبوا حمية له ، وأقسموا إن وقع به شىء ليقتلن فيه عتبة ، وهو من هو فى سادة قريش ورؤساء المشركين .

وفيها أصدق تصوير لما يكنه أبو بكر من الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهو لم يكد يفيق من غشيته لشدة ما ناله حتى يبادر فى أول كلمة ينطق بها ، وقومه حواليه ، وهم على غير دينه : « ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ »

وفيها تصوير لحالة المؤمنين فى بدء الاسلام ، وأنهم كانوا مفزّعين يخشون كل شىء ؛ فهذه أم جميل مؤمنة صادقة الإيمان ، لم تأمن أم أبى بكر على شىء من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق ، فتنكر معرفتهما ، ولكن قلبها يحدثها بشىء فتحتال حتى تصل الى أبى بكر ، ولم تملك نفسها إذ رأته صريعا أن اندفعت صريحة الإيمان ، تدعو بالويل والثبور على من نالوا منه ، فيتماسك أبو بكر رغم ما به ويسألها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليطمئن على حياته المفداة ، فتأبى إلا الحذر والشك فى أم أبى بكر ، لأنها كانت لا تزال على دين قومها ، فيكشف لها الصديق عن ثقته فى أمه ، وتخبره حين تطمئن الى أنه لا عين عليها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عافية من كلاءة الله ورعايته . وهنا تتجلى خصائص الإيمان الصديقى ، وتظهر معجزة الحب الذى ينسى أمرّ الآلام ؛ فأبو بكر لم يكد يسمع بعافية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ينسى ما حل به ، ويتحامل على نفسه وعلى أمه ليرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطمئن عليه ، فيرق له رقة شديدة ، ويكب عليه يقبله ، ويقبله المسلمون .

موقف تعجز أبرع الأقلام وأبينها ، وأنطق الألسنة وأفصحها ، عن كشف سرائره العاطفية ، وآياته الوجدانية البالغة ، ولكنه معبر عن نفسه بصورته وآثاره ؛ وحسبك أنه سرت منه نفحة الى قلب أم الصديق ، وقد جاءت تسند ولدها ليرى حبيبه ، وهى مشركة ، وعادت معه بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تمشى فى فجاج الخلد الى عليين ! ؟

صادق عرجون

الكلام والمتكلمون

— ١٢ —

تتمة الحديث عن متفلسفى المتكلمين

أما الموقف الرابع ، فأكثره فى الطبيعيات ، إذ عالج فيه المؤلف الجسم المركب وتألفه من بسائطه ، ثم مشكلة قبول الأجسام للتجزؤ الى غير النهاية أو عدم قبولها ذلك ، وأورد حجج المتكلمين والفلاسفة فيها ؛ ثم تناول الهيولى والصورة وذكر أدلة الفلاسفة على وجودها ؛ ثم عرض بعد ذلك للأفلاك فذكر دعوى الفلاسفة أنها تسعة ، وتحدث عن الأفلاك المشغولة منها كفلك الثوابت ، وفلكى الشمس والقمر ، والأفلاك الخمسة الأخرى ، وعن الخسوف والكسوف والبدر وما شاكل ذلك ، ثم عن العناصر الأربعة ، وأبان أن أولها خفيف مطلق حار يابس وهو النار ؛ وثانيهما خفيف نسبيا ، وهو حار رطب إذا خلى وطبعه ، وبارد بمجاورة الأرض وهو الهواء ؛ وثالثها ثقيل مطلقا ، وبارد يابس ، وهو الأرض ؛ ورابعها ثقيل نسبيا ، وهو بارد رطب جامد إذا خلى وطبعه ، ولكن الشمس تذيبه وهو الماء ؛ وأبان بعد ذلك أن هذه العناصر قابلة للكون والفساد ؛ ثم انتقل الى مشكلة الأرض فقرر أنها كروية ، وأنها من العالم بمثابة المركز .

تحدث بعد ذلك عن النفوس الفلكية والبشرية ، فذكر أنها كلها كائنات مجردة ، وأن النفوس الناطقة حادثة . ثم اختتم هذا الموقف بالحديث عن العقل ، وأنه أول الموجودات عند الحكماء ، وبكيفية ترتيب هذه الموجودات فى رأيهم .

أما الموقف الخامس — وهو فى الإلهيات — فقد تناول فيه المؤلف إثبات الصانع ومخالفته لكل من عداه ، وقرر أنه لا ند له ؛ ثم انتقل بعد ذلك الى تلك المشكلة التى شغلت الفلاسفة والمتكلمين زمنا طويلا ، وهى : هل وجوده عين ذاته أو غيرها ؟ ثم أثبت بعد ذلك أن البارى ليس جسما ولا جوهرا ولا عرضا ، ولا يحده زمان ولا مكان ، ولا يتحد بغيره ، وأن ذاته ليست محلا للحوادث ، وأنه واحد ، حى ، عالم ، مريد ، قادر ، سميع ، بصير ، متكلم . ثم عرض بعد ذلك للصفات المختلف فيها ، فذكر طائفة من أوجه النظر المتعارضة حولها ؛ ثم تناول ما يجوز فى حق الله وما لا يجوز ، وتكلم فى مسألة رؤيته تعالى ، وأبان أوجه الخلاف فيها وفى مثيلاتها من النظريات التى كانت مثار جدل عنيف بين الجماعة والمعتزلة : كمسائل أفعال العباد ، والحسن والقبح ، والصلاح والأصلح ، وأسماء الله وهل هى توقيفية أو لا ، وما شاكل ذلك .

أما الموقف السادس — وهو فى السمعيات — فقد ألم فيه المؤلف بمسائل النبوات ، ومعنى النبوة والمعجزة ، ونبوة محمد ، والمعاد وحشر الأجسام وآراء الحكماء فى ذلك ، ومسألة الجنة والنار وهل هما مخلوقتان ؟ ومسائل العفو عن الكبيرة ، والحياة فى القبر ، وشفاعة النبى والصراط والميزان ، والحوض المورود ، وقراءة سجلات الأعمال ، وشهادة الأعضاء وغيرها مما ورد به الخبر ؛ ثم درس بعد ذلك مسألة حقيقتى الإيمان والكفر ، وهل الايمان يزيد وينقص أولا ؟

وأخيرا عرض لمسألة السياسة ، فتحدث عن الإمامة وما تستتبعه من شروط ، وذكر آراء الفرق المختلفة فيما وقع بعد وفاة النبى من فتن بين المسلمين بسبب الخلافة .

أما التذييل فهو — كما أسلفنا — فى ذكر فرق المسلمين ومذاهبهم ، على نحو ما فعل الأشعرى والرازى والشهرستانى . وقد ذكرنا أهم هذه الفرق وطرفا من آرائها فى موضعه ، فارجع اليه .

هذا هو مجمل أهم ما فى كتاب « المواقف » من آراء . ونحسب أنك توافقنا بعد ذلك على أن هذا الكتاب هو أجل ما أنتجه المتكلمون فى جميع عصورهم ، وأنك توافق مؤلفه على أنه قد سد الثغرة التى أحس بها بعد انتهائه من مطالعة كتب أسلافه ومعاصريه .

(٨) سعد الدين التفتازانى :

حياته ومؤلفاته :

هو سعد الدين مسعود بن عمر التفتازانى ، وقد ولد فى صفر سنة ٧٢٢ هـ سنة ١٣٢٢ م فى تفتازان إحدى قرى خراسان الكبرى . ولما نشأ تلقى العلم على الايجى ، وعلى قطب الدين الرازى . وقد روى بعض المؤرخين أنه هو وأستاذه كانا فى عصرهما من العلماء المقربين لدى الملوك والحكام ، وأنه هو الذى قدم الجرجانى الى المظفر . وحينما احتل تيمور تلك الأصقاع دعاه الى سمرقند وقربه من مجلسه ومنحه منحا عظيمة . ولما استولى على شيراز فى سنة ٧٨٩ هـ سنة ١٣٨٧ م جاء صديقه القديم الجرجانى الى سمرقند وأقام بها ، فحدثت بينهما منافسة علمية لم تلبث أن تحولت الى بغض وحقد بينهما جعلا يدفعانهما الى مناقشات عنيفة يلمح من خلالها التحامل أكثر مما تلوح عليها أمارات حب الحقيقة أو خدمة العلم . وقد وجدت نماذج هذه المحاورات الحادة فى كتب السيد الجرجانى . وقد حدثتنا خرافة منتشرة فى بعض الكتب العربية أن الجرجانى سأل سعد الدين سؤالا محرجا فى جمع من العلماء والأمراء فلم يعرف جوابه فمات لساعته ؛ وكان له حفيد عالم ، فلما عرف سبب موت جده ، صمم على الأخذ بثأره بنفس الطريقة ، فانتهز فرصة وجود الجرجانى فى حفل كبير وألقى عليه سؤالا عويصا كانت نتيجته أن خر الجرجانى صريعا جزاء وفاقا . ونحن لا نرتاب فى أن هذه خرافة مصنوعة ، ولكن صانعها صور فيها بلباقة ودقة ما كان يحدث بين هذين العالمين المتنافسين من مناضلات حادة .

وأخيرا توفى التفتازانى فى سمرقند فيما بين سنى ٧٩١ و ٧٩٧ هـ — ١٣٨٩ و ١٣٩٥ م .

أما مؤلفاته فهى كثيرة جدا ، إذ أنه كتب فى علوم مختلفة ، وهذا هو أهمها :

فى المنطق :

(١) شرح الرسالة الشمسية ، وهو معروف فى الهند تحت عنوان « السعدية » ، وهو شرح لـكتاب نجم الدين على بن عمر القزوينى . (٢) « تهذيب المنطق والـكلام » أو « غاية تهـذيب الـكلام فى تحـرير المنطق والـكلام » وهو مشهور ، وقد نشر عـدة مرات . (٣) « المقاصد » وهو معروف . (٤) شرح العقائد النسفية ، وهو ذو قيمة جليلة فى البيئات العلمية ، ولا يزال يدرس فى الجامعة الأزهرية . وقـد أشرنا اليه حين تحـدثنا عن النسفى . (٥) كتاب ضد مخالفات الدين التى وردت — فيما يرى المؤلف — فى كتاب « فصوص الحـكم » لابن عربى . وربما كان عنوانه : « فضيحة الملحدين » .

فى التفسير :

(٦) « كشف الأسرار وعدة الأبرار » ، وهو تفسير بالفارسية . (٧) شرح الـكشاف .

فى الفقه والأصول :

(٨) « المفتاح » وهو فى الفروع الشافعية . (٩) « اختصار شرح تلخيص الجامع الـكبير » وهو موجز غـير تام لشرح مسعود بن محمد على تلخيص الخلاطى لـكتاب الجامع الـكبير للشيبانى فى الفروع الحنفية . (١٠) مجموعة من فتاوى الحنفية . (١١) « التلويح الى كشف حقائق التنقيح » وهو شرح لـكتاب « تنقيح الأصول » تأليف « صدر الشريعة الصغير » المتوفى فى سنة ٧٤٧ هـ — سنة ١٣٤٦ م . (١٢) « شرح المختصر فى الأصول » وهو شرح على شرح الايجى لـكتاب « المختصر المنتهى » لابن الحاجب .

فى البلاغة والنحو :

(١٣) « المطول » . (١٤) « مختصر المعانى » . (١٥) « شرح القسم الثالث من المفتاح » . (١٦) « شرح التصريف العزى » وهو تفسير لرسالة عز الدين عبد الوهاب بن ابراهيم الزنجانى . (١٧) « الإرشاد الهادى » أو « إرشاد الهادى » وقد كتبه خصيصا لابنه .

فى اللغة :

(١٨) « النعم السوابغ فى شرح الـكلم النوابغ » وهو تفسير لـكتاب الزمخشرى المعنون : « الـكلم النوابغ » .

(٩) السيد الجرجانى : حياته ومنتجاته :

هو على بن محمد السيد الشريف ، ولد فى قرية قريبة من سراباذ بين همذان وبغداد فى سنة ٧٤٠هـ سنة ١٣٣٩ م ولا يعرف التاريخ شيئا يذكر عن شبابه أو عن دراسته ، وإنما هو يبتدئ يحدثنا عنه حين قدمه سعد الدين التفتازانى الى الشاه ، فينبئنا بأن هذا الأخير لم يكد يكتشف ذكاءه وعلمه حتى عينه أستاذا فى شيراز فى سنة ٧٧٩ هـ . وحينما افتتح « تيمور » شيراز بعث به الى سمرقند فى سنة ٧٨٩ هـ . ولما توفى تيمور فى سنة ٨٠٧ هـ ـ سنة ١٤٠٤ م استطاع الجرجانى أن يعود الى شيراز ، فعاد وظل فيها حتى توفى فى سنة ٨١٦ هـ ـ سنة ١٤١٣ م .

أما مؤلفاته فكثيرة العدد ، كتب بعضها بالعربية ، وبعضها بالفارسية ، وهى فى الفلسفة والفلك والفقه . وبين هذه الكتب عدد غير يسير موضوع ، والباقى شروح فى هذه المواد المتقدمة . ومن أهمها ما يأتى :

(١) كتاب التعريفات . (٢) شرح موجز على الكشاف للزمخشرى . (٣) « علم المعانى والبيان » وهو شرح للقسم الثالث من كتاب « مفتاح العلوم » للسكاكى . (٤) شرح على المطول للتفتازانى ، وعلى تلخيص المفتاح . (٥) شرح على الفرائض السراجية للسجاوندى . (٦) حاشية على شرح قطب الدين الرازى على الرسالة الشمسية فى القواعد المنطقية للكاتبى . (٧) حاشية على شرح البخارى على كتاب « حكمة العين » . (٨) شرح على كتاب « المواقف » . (٩) « الأصول المنطقية » .

من هذا العرض الموجز الذى أسلفناه لحركة المتكلمين فى عصورهم الثلاثة : عصر ما قبل الترجمة ، وعصر سيادة الفلسفة ، وعصر ما بعد الغزالى ، يتبين لنا الدور الذى قام به أولئك المفكرون المتقيدون بالاسلام فى أكثر مناحيهم ، والذين بعد أن درسوا الفلسفة الإغريقية وهضموا كثيرا من نظرياتها واستفادوا منها أكبر الفائدة ، نصبوا أنفسهم لمهاجمتها ومحاولة النيل منها ، فوفقوا حينا وأخفقوا أحيانا ؛ وكان إخفاقهم إما لأن النظريات التى كانوا يعرضون أنفسهم لمهاجمتها كانت فنية الى حد لم تصل معارفهم إليه ، وإما لأنها نقلت إليهم مشوهة فكانت ردودهم فى الحالتين على أساس غير متين ، ولكنهم فيما عدا ذلك كانوا فى تاريخ الفكر البشرى أعلام شرف ومجد لا ينبغى إغفالها أو التغاضى عنها . ولم لا ؟ أليس الفلاسفة المدرسيون الذين تباهت بهم أوروبا فى العصور الوسطى صورا توشك أن تكون أمينة لأولئك المتكلمين المسلمين فى أكثر نزعاتهم الفكرية ، وهم مع ذلك قد حسبوا فى عداد الفلاسفة عند الأمم التى تقدر نابغيها ؟ وفوق هذا فإن تلك الأمم الناهضة أنفسها قد أثبتت أسماء عدد غير يسير من هؤلاء المتكلمين المسلمين فى سجلات المفكرين الخالدين . ولا ريب أن هذا يحملنا على المساهمة فى إبراز ما خفى من نواحى هؤلاء الأعلام النابغين ؟

الدكتور محمد غلاب

بحوث في المسائل الفقهية

تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

— ٩ —

الشـــافعى

حياته ، عهده بمصر ، هل أثرت مصر فى فقهه ،
أو تأثرت به ؟ نقـــــد علمى لرأى مشهور .

حيـاته :

كان الشافعى ، رضى الله عنه ، رجلا كبير الهمة ، وثاب العزيمة ، نظّارا الى المعالى ، متطلعا الى الكمال ؛ وكان يساعفه على ما يريد ، ويمده الى ما يبتغى ، طبع صاف ، وعقل حاضر ، وذكاء موهوب ؛ وقد ظلت هذه الصفات تدفعه نحو الكمال منذ حداثته حتى أصبح رجلا من الرجال العالميين ، وسُجل اسمه فى سجل الخالدين !

حياة يملأ جوانبها النشاط والعمل ، والسعى والدأب ، ورِحَلٌ يتصل بعضها ببعض ، فى صبر وعناية ومثابرة ، وانتهاز للفرص ، وحرص على الانتفاع بكل شىء والنظر فى كل شىء !

طفل يتركه أبوه ابن سنتين فقيرا لا مال له ، وحيدا ليس له من عائل سوى أمه ، فما هو إلا أن ترسله الى المعلم كسائر الصبيان ، حتى يلمح المعلم نبوغه ، ويتبين مخايل عبقريته ، فيرضى بأن يخلفه فى عمله إذا غاب عنه ؛ ولكن الصبى لا يكتفى بهذه المنزلة التى ينالها من بين إخوانه ، ويطمع فى منزلة أسمى ، فيتردد الى المسجد حيث يجالس العلماء ، ويستمع الى أحاديثهم ، ويسألهم ويحاورهم ، ويحفظ عنهم ، فيلفت بذلك نظر أمه الى ذكائه وحسن استعداده ، فاذا هى ترسله الى البادية ، وتنزله فى هذيل ، يقيم معها ما أقامت ، ويرحل معها إذا رحلت ، ويتعلم كلامها ، ويحذق لغتها ، ويروى أشعارها ، ويبلغ من ذلك كله مبلغ العلماء المتأدبين ، حتى يقرأ عليه مثل الأصمعى أشعار الهذليين ، ثم لا يكتفى باتقان ذلك والبراعة فيه ، ولكنه يتخذه وسيلة الى علم أكبر ، وفضل أظهر ؛ فهو إذ يتوجه الى مكة راجعا من هذيل ، يلقاه فى طريقه رجل من الزبيديين ، فيتحدث أحدهما الى الآخر حديثا يظهر به الشافعى فى فصيح اللسان عبقرى الذكاء ، فيقول له صاحبه : أيها الفتى ! يعز علىّ ألا يكون مع هذه الفصاحة وهذا الذكاء

فقه تسود به أهل زمانك ! فقه ؟ تطرق هـذه الـكلمة سمع الشافعي فتصادف من نفسه هوى لعله كان يحبسه ، وتحدد له معنى لعله كان يضطرب في فؤاده ، فاذا القلب القوى يتوجه الى العلم القوى توجها ، ويلتفت اليه التفاتا يتغير به مجرى حياة هذا الشاب الجرىء ، فهو يعكف على الفقه ، فيستوعب ما عند مسلم بن خالد الزنجي منه ، ثم ما عند ابن عيينة والفضل بن عياض ؛ ثم يشرئب الى مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، فيرحل اليه ، ويقرأ عليه موطأه ويسمع منه ، ويومئذ يرى فيه مالك من علائم النجابة ما رآه الناس فيه من قبله ، فيقربه اليه ، ويعلن إعجابه به ويثنى على ذكائه ، وجودة حفظه ، ويصله بجزيل العطايا ، فيذيع فى الناس ذكره ، ويطير فى الآفاق صيته ، وتسبقه أينما حل شهرة تفتح أمامه المغاليق ، وتذلل له الصعاب ، وتجعله ملء المسامع والأفواه والمقل !

فهل يقف الشافعي عند هـذا الحد ؟ وهل يكتفى بهـذه المنزلة السامية ؟ كلا ، ولـكنه يظل يرحل ويتعلم ويتثقف ، فيجوب أنحاء المملـكة الاسلامية طولا وعرضا ، ويجادل ذوى الآراء ، ويناظر فحول العلماء ، ولا يثنيه عن طريقه أن تستيقظ له عيون الحاسدين ، وأن تتناثر من حوله التهم والمطاعن ذات الشمال وذات اليمين ، لأنه مخلص لله ، واثق بالله ، مطمئن الى نفسه .

عهده بمصر :

قدم رضى الله عنه الى مصر فى أخريات عمره سنة ١٩٩ هـ بعد أن شرّق فى البلاد وغرّب ، وبعد أن تعلم وتـكمل ، وجادل وناظر ، وكتب وألف ، واستوى ونضج .

وكان كل شىء فى مصر يدعوه إليها ، فله فيها تلاميذ يحبونه ويحرصون على أن يقيم بينهم ؛ والناس فى مصر فريقان ـ كما ذكرنا : فريق يعتنق مذهب الحنفية ويتعصب له ، وفريق يميل الى مذهب المالـكية ويناضل عنه ؛ فلعله إذا صار إليهم أن يأتيهم بما يشغلهم به عن المذهبين جميعا ، أو لعل الله يصلح به بين المتخاصمين ؛ ثم هو بحاجة الى أن يستقر قراره ، ويلقى عصا الترحال ، وينفرغ الى كتبه فيدونها ، وينقحها ، ويسجل فيها علمه وآراءه وما استفاده طول حياته ؛ ولعله كان أيضا يحس بدنو منيته ، وقرب أجله ، وأن من الخير له ولأهله أن يقيم بعد طول ما رحل ! وهكذا قدم رضى الله عنه الى مصر ، واشتغل فيها بالفقه والتدريس ، فـكان يقرأ كل يوم فى مسجد الفسطاط ، ويملى دروسه وكتبه على تلاميذه ، وكان يناظر العلماء من كل مذهب ، ويثير من حـوله نقد الناقدين أحيانا ، وإعجاب المعجبين أحيانا ، وحسد الحاسدين ، وطعن الطاعنين ، ولـكنه مع ذلك كله كان مثالا يحتذى فى العلم والأدب ، والصبر على المـكاره ، وتحمل المشاق ، كما كان مثالا فى النشاط ، والمثابرة ، والدأب على الدرس والتحقيق . وقد أملى بمصر كتاب الأم ، والرسالة الأصولية التى تصف لنا منحاه فى اجتهاده ، وطريقته فى استنباطه ، والتى تحدث فيها عن كثير من مسائل علم الأصول ، وعُدّ بها أول مؤلف فى هذا الفن .

وللشافعى مذهبان : قديم ، وجديد ؛ وقد أملى مذهبه الجديد بمصر ، ولذلك اشتهر بين كثير من الناس أن هذا المذهب الجديد مصرى .

ومن حق القراء أن يتساءلوا : أيهما قد تأثر بالآخر ؟ أفقه الشافعى تأثر بمصر ، أم مصر هى التى تأثرت بفقه الشافعى ؟

وكثيرا ما وجهت الى نفسى هذا السؤال ، وربما كنت أميل الى شقه الأول ، وأرى أن الشافعى ماوضع مذهبه الجديد إلا بعد أن رأى ما لم يكن قد رأى ، وسمع مالم يكن قد سمع ، وبعد أن تلقحت هذه العقلية الجبارة بلقاح جديد من العلم والرأى والنظر . وقد رأيت كثيرا من الباحثين قد اغتر بمثل ما اغتررت به فقرر أن الشافعى قد تأثر فى مذهبه الجديد بمصر تأثراً ظاهراً ؛ ومن هؤلاء الأستاذ الفاضل أحمد بك أمين .

وقد تبينت — بعد البحث والتأمل — خطأ هذا الرأى ، وأصبحت أجزم بأن الشافعى هو الذى أثر فى مصر أثراً ظاهراً ، وأن مصر لم تؤثر فيه أثراً يذكر .

ويحسن بى أن أعرض أمام القراء نص كلام الأستاذ أحمد بك أمين ، ليتبينوا رأيه ، ثم أتبع ذلك بنقدى له ، حتى إذا انتهيت من هذا وذاك بسطت رأيى ، إن شاء الله .

يقول الأستاذ احمد بك أمين (١) :

« والعلماء يقسمون فقه الشافعى الى مذهبين : قديم ، وجديد ؛ فأما القديم فهو ما كتبه وقال به فى العراق ؛ وأما الجديد فهو ما كتبه وقال به فى مصر ؛ ذلك أنه لما جاء مصر عدل عن بعض أقوال له كان قالها من قبل ؛ وسببه أنه خالط علماء مصر ، وسمع ما صح عندهم من حديث ، وسمع تلاميذ الليث بن سعد ينقلون عنه آراءه وفقهه ، ورأى بعض حالات اجتماعية تخالف تلك التى رآها فى الحجاز والعراق ، فغيّر ذلك من فقه الشافعى فى بعض أقواله ، وأطلق عليه المذهب الجديد » .

ويقول الأستاذ أيضا (٢) :

« إنه كان للمصريين معاملات لا يتعامل بها أهل العراق ولا الحجازيون ، ونظام الرى للنيل فى مصر غير نظام دجلة والفرات ، وذلك يستتبع اختلافا فى الخراج وما اليه ، وكلاهما يختلف فى ذلك عن بلاد لا تعرف أنهاراً كالحجاز ؛ كل هذا وأمثاله كان له أثر كبير فى تكوين مذهب الشافعى » .

ويقول الأستاذ فى التمثيل لهذا التأثر (٣) :

« ثم هو متأثر بالمصرية أحيانا ، فاذا أراد أن يمثل بصيغة لوقفية مثّل لذلك بوقف بيت فى الفسطاط من مصر ؛ ويتكلم فى الطين الذى يعرف بالطين الأرمنى ، والطين الذى يقال له

(١) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٣١ (٢) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٢١ (٣) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٣٢

طين البحيرة ، وهما مما يدخلان فى الأدوية ، ويقارن بين الطين الأرمنى وطين رآه فى الحجاز ؛ ويتكلم فى القراطيس « وهى مصرية » ، ويبين متى يجوز أن تسلف ومتى لا يجوز ؛ ويتكلم فى شهادة الشعراء ومن يجوز شهادته منهم ومن لا يجوز ، فيستملى — فيما يظهر — من حال الشعراء فى مصر ، الى أمثال ذلك » .

هذا هو رأى الأستاذ أحمد بك أمين كما يصوره قلمه .

وهذا الكلام يمكن ضبطه بارجاعه الى مقدمات ونتيجة .

فأما المقدمات فهى :

(١) الشافعى سمع من المصريين بعض الأحاديث التى لم يكن سمعها ، أو قوّى بروايتهم بعض الأحاديث التى كانت ضعيفة عنده من قبل .

(٢) الشافعى رأى من الحالات الاجتماعية فى مصر ما يخالف الحالات التى بالعراق والحجاز ، يعنى أنه كان للمصريين عرف يخالف عرف العراقيين والحجازيين .

(٣) الشافعى رأى بمصر موضوعات جديدة ، ومسائل فقهية لم ترد على ذهنه فى الحجاز والعراق كالقراطيس المصرية مثلا .

وأما النتيجة فهى :

« كل هذا وأمثاله كان له أثر كبير فى تكوين مذهب الشافعى . . . غيّر ذلك من فقه الشافعى فى بعض أقواله ، وأطلق عليه المذهب الجديد » .

بهذا قد أصبح رأى الأستاذ مفهوما راجعا الى نقط يمكن مناقشتها وبيان وجه الخطأ فيها ؛ وإليكم أيها القراء هذا البيان :

١ — من المعروف أن الشافعى لم يقدم الى مصر إلا فى أواخر حياته بعد أن تركزت ثقافته وتكونت ، وأنه قد اشتغل بالتدريس فى جامع عمرو بن العاص منذ قدومه ، وكان يملى كتبه التى ألفها من قبل على تلاميذه ؛ وواضح أن ما يمليه على هذا النحو لا يعد تأليفا مصريا تأثر بمصر والمصريين .

٢ — أن الشافعى لم يعش فى مصر أكثر من أربع سنوات كان فيها موضع منافسة ومزاحمة ، كما كان مشتغلا بتوطيد مقامه فى هذا الموطن الجديد ؛ ومثل هذا الزمن لا يكفى لتكوين فكرة جديدة تستحق أن يلغى من أجلها مذهب كوّنه العمر ، وركزته الرحل والأسفار والمدارسات .

٣ — إن من يرجع الى المذهب الجديد يرى أكثر المدارك التى يعتمد عليها راجعة

الى الحديث ؛ والتأثر الذى يكون سببه الحـديث ، لا يصح أن ينسب الى مصر ، فان أهلها فى الرواية متأثرون بغيرهم من الصحابة ، وأعلام المحدثين ، وليسوا مؤثرين .

على أن أخذ الشافعى بحديث ظهرت له صحته لا يجعله متأثرا بأقليم بخصوصه ، فان مذهبه الذى اشتهر وعرف به هو الذى عبر عنه بقوله : « إذا صح الحديث فهو مذهبى » ؛ فإذا بنى مسألة من المسائل على حـديث سمعه بالعراق ، فانه لا يكون بذلك متأثرا بالعراق ؛ وكذلك إذا بنى على حديث سمعه بالحجاز أو بمصر ، فان ذلك لا يعد تأثرا بالحجاز أو بمصر ، وإنما هو تأثر بالحديث ، اللهم إلا إذا كانت إضافة هذا التأثير لمصر لأدنى ملابسة كما يقولون !

٤ — التأثر الذى سببه العرف والحالات الاجتماعية ، كما يقول الأستاذ ، لا يكاد يوجد فى المذهب الجديد ، ولا يكاد يشعر به من فقهاء الشافعية أحد .

على أننا لا نحب أن نقطع بعدم وجود شىء من ذلك ، فلنفرضه موجودا ، ولنفرض أنه كثير ، ولـكن العلماء لا يعدون مثل هذا مذهبا جديدا ، فان الاختلاف الذى يكون أساسه العرف لا يعد اختلافا على الحقيقة ، وإنما هو رأى واحد له شقان يطبق أحدهما فى عرف ، ويطبق الآخر فى عرف غيره .

ولذلك يأبى البَطَلْيَوْسى والشاطبى أن يعدا العرف من أسباب الاختلاف ، فاذا روى مثلا عن فقيهين اختلاف فى اعتبار الـكفاءة فى الحِرَف أساسه العرف بأن تكون حرفة ما شريفة فى عرف قوم ، وضيعة فى عرف آخرين ، فلا ينبغى أن يعد ذلك خلافا على الحقيقة ، إذ لو شاهد كل إمام ما شاهد الآخر لقال بما قال .

وإذا لم يعد مثل هذا خلافا حقيقيا مع أن فى المسألة قولين ، لـكل فقيه قول ، فأولى ألا يعد قول القائل الواحد مختلفا مع نفسه ، ولـكن علينا أن نعد الرأى الثانى بمثابة القيد فى الرأى الأول ، كأنه قال : الحـكم كذا بحسب هذا العرف فاذا تغير فالحـكم كذا ؛ ومن الواضح أن المسألة على هذا الوضع لا يظهر فيها كيف أثرت مصر فى فقه الامام الشافعى .

أما الأمثلة التى أوردها الأستاذ كشواهد على تأثر الشافعى بالمصرية فلها حـديث بعد هذا الحديث ؟

محمد محمد المدنى

المدرس بكلية الشريعة

القيمة العلمية لأبحاث المستشرقين

ليس هناك من يستطيع أن ينكر فضل المستشرقين فيما قاموا به من جهود جبارة ، وما أدوا من خدمات فى محيط البحث العلمى ؛ فلقد حققوا الكثير من المسائل العلمية ، وأثاروا الكثير من البحوث القيمة ، كما نشروا الكثير من أمهات الكتب التى كانت تعتبر مفقودة ، وكان لا يعرف عنها المشتغلون بالعلم إلا الاسم كما وردت فى كتب بعض المؤلفين ممن انتفعوا بها فى تآليفهم ؛ نشرها المستشرقون بعد أن بذلوا غاية ما يمكن من جهد فى التنقيب عنها فى مظانها ، وفى الحصول على أصولها المخطوطة ، غير باخلين بدفع الثمن لأصحاب هذه الأصول مهما بلغ ، وبعد أن أعدوها للانتفاع بها على خير وجه ، بفضل الإخراج المتقن ، والتنظيم العلمى الموافق لقواعد فن الإخراج الحديثة .

وهم لهذا وغيره يستحقون الشكر منا على ما قدموا وبذلوا فى سبيل العلم ، كما تستحق أعمالهم عناية الباحثين يتناولونها بالنقد العلمى والترجمة . وإنا لنرى بحمد الله هذه العناية تزداد يوما بعد يوم ، ونقرأ للكثيرين فى الأيام الأخيرة ما يترجمونه من كتب المستشرقين وأبحاثهم ، وما يتحدثون به عن المستشرقين وعن أعمالهم ، وهو ولا شك حديث قيم يثير اهتمام من له صلة علمية بهؤلاء العلماء ، أو بموضوع الحديث على السواء .

بيد أن الباحث لا بد له من الحيطة والحذر حينما يريد معالجة رأى أو بحث من البحوث الاستشراقية ، حتى لا يخدع فى تحديد القيمة العلمية لهذا الرأى أو لذلك البحث المعين بما لصاحبه من سمعة علمية طيبة ، وحتى يكون أقرب الى الصواب والعدل فى حكمه وتقديره ؛ فعليه ألا يأخذ الكلام على علاته ، وألا ينقله قضية مسلمة ، وإنما يرجع به الى أصوله ويرده الى مآخذه ، ويمتحن صحة الاستنتاج فيه ليرى مقدار تمشيه مع قواعد الحكم الصحيح ؛ وخاصة إذا كان ذلك فيما يتصل بالاسلام وعلومه ؛ فكثيرا ما يكون الأساس الذى اتخذه المستشرق فى بحثه وبنى عليه إصدار حكمه فى مسألة ما غير صحيح ، وكثيرا ما يكون عدم الفهم للعوامل الأساسية ، أو القياس مع الفارق ، أو الحكم على الاسلام بأعمال المسلمين المخالفة لتعاليم الدين بعد اعتبار أنها صورة من صور الاسلام ، كثيرا ما يكون أحد هذه الأشياء أو غيره سببا لخطأ المستشرق فى حكم من أحكامه العلمية .

وقد يكون سبب الخطأ فى الحكم قصد المستشرق الى أن ينقد الاسلام ، ويظهر فى تعاليمه وجها من وجوه المؤاخذة ؛ فمما لا شك فيه أن بعض الغربيين المشتغلين بالعلوم الاسلامية لم يعن بدراسة مبادئ الاسلام وعلومه إلا ليكون ذلك وسيلة لأن ينقده ، وطمعا فى استطاعته

بهذه الوسيلة أن يرد شيئا من مبادئه . وهذه الطائفة من الباحثين كانت فى مبدئها تعمد الى تحريف الكلم عن مواضعه ، فتقدم الى شعوبها باللغة اللاتينية أو بلغاتها المختلفة صورة مشوهة للاسلام ، ثم تعقب على ذلك بإصدار أحكامها المغرضة فى تحديد القيم للمبادئ الاسلامية ؛ وهذه الأحكام المبيتة المبنية على التحيز والصادرة عن الغرض ، كانت تصادف هوى فى نفوس المسيحيين وترضى عاطفة بغضهم للشعوب المسلمة . وما زالت هذه طريقتهم فى مناوأة الاسلام وكتاباتهم عنه بنقلهم المبادئ الاسلامية مشوهة الى شعوبهم ، ما زالوا كذلك حتى سلك الأستاذ هادريان ريلاند Hadrian Reland (١) فى ذلك سبيلا آخر ، فعمد أولا الى تقديم صورة صحيحة للتعاليم الاسلامية ، والى تصحيح الأخطاء التى كانت شائعة فى ذلك الوقت عن مبادئ الاسلام فى كتابين (٢) ألفهما باللغة اللاتينية ؛ وكان بذلك أول من أعطى صورة علمية صحيحة للتعاليم الاسلامية من علماء الغرب كما يقول الأستاذ Gustav Pfannmuller) (٣) ولقد قامت ضجة كبرى فى الأوساط المسيحية عند ظهور كتاب ريلاند الثانى ، واتهم بميلأنه للاسلام ضد النصرانية ، ووصف بأنه من دعاة الاسلام المبشرين به ، واتخذت الكنيسة ضده الاجراءات التى كانت متبعة فى ذلك الحين ضد « الملحدين » فأثبتت كتابه فى قائمة الكتب المحرمة (Index hibrorum prohibitorum) . ولكن الأمر كان على غير ما تبتغى الكنيسة ، وكان فى عملها أكبر دعاية للكتاب ، فراج رواجا كبيرا ، ولم تمنع هذه الضجة التى قامت حول ظهوره — كما يقول الأستاذ Pfannmuller — من ترجمته الى الانكليزية والفرنسية والألمانية والهولندية والاسبانية ، ومن أن يصبح مرجعا للباحثين فى تعاليم الاسلام من الغربيين .

والعبرة فى هذا هى أن الأستاذ ريلاند ما كان يبغى بتصحيحه للأخطاء الشائعة فى وقته عن المبادئ الاسلامية ، وبتقديمه للشعوب المسيحية صورة صحيحة عن تعاليم الاسلام ، ما كان يبغى بهذا إلا وضع أساس علمى على الطريقة التى يرضاها لما كان ينويه من مهاجمة الاسلام باسم النصرانية التى كان يعتنقها دينا ، ويريد الدفاع عنها بمهاجمة وتجريح الاسلام ، ذلك الدين القويم صاحب التعاليم القوية والمنطق الصحيح ؛ فهو يريد أولا أن يدرس المبادئ الاسلامية كما يعرفها ويقرها المسلمون ، يريد أن يقدم لها صورة صحيحة ، ثم يحاول بعد هذا إيجاد مأخذ وفتح باب يلجه للمهاجمة والنقد . هذا ما قصد إليه ، وذلك ما دافع به عنه

---

(١) عاش الاستاذ Reland من ١٦٧٦ — ١٧١٨ م وكان أستاذ اللغات الشرقية بجامعة أوترشت Utrecht الهولندية . (٢) هما كتاب ,Compendium theologiae ، Mohammedicae) arabice et latine) . وكتاب De nonnullis quae falso ، Mohammedanis tribunutur) . (٣) راجع ص ٦٣ من كتاب rHandbuch der Islam-Literatur للاستاذ المذكور طبعة سنة ١٩٢٣ م وإخراج دار الطباعة ببرلين لصاحبها Walter de Gruyter .

أصدقاؤه ومقدروه فيما بعد ، أمثال الأستاذ Pfamuller (١) ؛ وأيضا هذا هو ما صرح به ريلاند نفسه فى مقدمة كتابه ، وقد كتبها طبعا قبل صدور الكتاب ، وقبل أن تثار الضجة حوله ؛ فلا شك أنه يقصد ما يقول ؛ فإنا نرى هذا الباحث الثائر بعد أن يصرح بأن الاسلام ، كسائر الأديان ، قد افترى عليه معارضوه ، واعتدوا على أتباعه ، وأشاعوا عنه ما ليس منه ، إما عن قصد وعمد أو عن جهل وعدم فهم ، كما كان موقف الوثنيين مع اليهودية والنصرانية ومع اليهود والنصارى ، وكما فعل الكاثوليك مع لوتر وأتباعه ومع سائر المصلحين الدينيين من المسيحيين وقت ظهورهم . بعد أن صرح بهذا وصرح بأنه سيقدم على إخراج كتابه فينشر بذلك صورة حقيقية لتعاليم الاسلام ، كما تنفذ فى المساجد وتدرس فى مدارس المسلمين ، لا كما شوهها بعض الغربيين ، وبأنه سيفعل ذلك بالرغم من اعتقاده بأن أعداءه سينتهزون هذه الفرصة للتشهير به والنيل منه ، فهو لا يبالى بما عساه يحدث لأنه من طلاب الحقيقة ، وهم يبحثون عنها ويطلبونها أنى كانت وحيث وجدت ؛ نراه بعد أن يصرح بكل هذا يقول ما معناه : (٢)

« حقا إن الاسلام دين خطير ، دين شديد الأضرار بالديانة المسيحية ؛ ولكن أيجوز لنا لهذا أن نهمله ولا نعنى بشأنه وندرسه ؟ أم الواجب علينا هو أن نبحثه ونكشف عن خفاياه ، كما نبحث عن خفايا الشيطان ونكشف عن حيلته ؟ ! نعم الواجب علينا هو أن نعنى كل العناية بأن يكون من أغراضنا العمل على معرفة الدين الاسلامى ودراسته على حقيقته ، فذلك أعون لنا على مكافحته ومعارضته بقوة وثبات » .

فهو إذاً يشارك غيره من طائفته فى العزم على مكافحة الاسلام ومعارضته بقوة وثبات ، وإن اختلفت الطرق .

تلك جملة من الأسباب التى قد تدعو الى خطأ بعض المستشرقين فى بحوثهم المتعلقة بالاسلام والعلوم الاسلامية ؛ وسنضرب للقارئ فى مقال آخر بعض الأمثلة لهذه الأخطاء التى ترجع الى اعتبار من الاعتبارات التى ذكرناها . والآن نود أن نصرح بأن التنقيب عن مثل هذه الأخطاء العلمية ورد الحق الى نصابه فيها مهمة ليست بالسهلة ، ولكنها مهمة أولئك الذين اتصلوا بالمستشرقين وعنوا ببحوثهم التى فيها الكثير من الغناء والنفع ؛ فعليهم أن يضطلعوا بهذه المهمة ، وخاصة منهم أعضاء البعثات الأزهرية الذين جمعوا بين الثقافتين : الثقافة الاسلامية الشرقية ، والثقافة الغربية ؛ فهم أولى وأجدر بالاضطلاع بها ، وعليهم قبل غيرهم تقع التبعة إذا هم قصروا فى التنقيب عن مثل هذه الزلات فى بحوث المستشرقين ، والكشف عن وجه الشبهة فيها ، حتى تسفر الحقيقة ويستقر الحق فى نصابه ؟

محمد عبد الله ماضى
أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين

(١) راجع ص ٦٣ أيضا من المرجع السابق . (٢) راجع ص ٦٤ من المرجع السابق .

التجديد والمجددون فى الاسلام

الامام الاعظم أبو حنيفة — دراسات فى مذهبه

هل آثر أبو حنيفة العمل بالرأى والقياس على العمل بأحاديث الآحاد ؟

هذا البحث يستدعى سرد جميع أبواب الفقه لمعرفة ما حصلت فيه المخالفة أو الترك إن كان حصل شىء منهما فى مذهب أبى حنيفة ؛ ولما كان هذا من التطويل بحيث يحتاج الى سفر برمته ، فنقتصر الآن على ذكر قواعد إجمالية هى أصول هذا الموضوع ، وفيها غنية عن الإطناب والتطويل ، فنقول :

١ — زعم بعض العلماء أن الامام أبا حنيفة خالف فى مذهبه أحاديث صحيحة ، وفضلا عن ذلك فقد ترك العمل ببعض أخبار الواحد . والسبب فى زعمهم هذا أنهم لم يتأملوا قواعد الامام ، ولم يحققوا النظر فى أصول مذهبه ؛ إذ منها كما قال الامام ابن عبد البر فى كتاب « الكُنَى » : أن من مذهب أبى حنيفة فى أخبار الآحاد أنه لا يقبل منها ما خالف أصول الشرع المجمع عليها ؛ فأنكر عليه ذلك أصحاب الحديث ، ورموه تارة بنبذ السنة وعدم الاعتراف بها ، وتارة بقصور باعه فيها ؛ وحاشاه من كل ذلك ؛ وهذا مسنده الذى جمعه أبو المؤيد فى ثمانمائة صفحة كبيرة دليل على ذلك ، وهو مطبوع بمصر سنة ١٣٢٦هـ وما يقال من أن أبا حنيفة لم يصح عنده أو لم يبن مذهبه إلا على سبعة عشر حديثا ، قول باطل ، ففى الفتوحات الإلهية أن أبا حنيفة انفرد بتخريج ٢١٥ حديثا غير ما اشترك فى إخراجه مع بقية الأئمة ؛ وقد روى فى مسنده من رواية الحصكفى فى باب الصلاة وحدها ٢١٨ حديثا ، كما روى فى كل باب من بقية أبواب الفقه الأحاديث الكثيرة ، فكيف يصح بعد كل هذا أن يرميه خصومه بأنه نبذ السنة ؟

٢ — وقال ابن عبد البر أيضا فى كتابه « العلم » : ليس لأحد من علماء الأمة أن يثبت حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم ثم يرده دون ادعاء نسخ ذلك بأثر مثله أو باجماع أو بعمل يجب الانقياد اليه أو طعن فى سنده ؛ ولقد عافى الله الامام أبا حنيفة وجميع أئمة المسلمين من ذلك ؛ فان صح أن الامام أبا حنيفة ترك العمل ببعض أحاديث الآحاد ، أو خالف حديثا كما زعموا ، أو قدم القياس أحيانا ، فانه لم يفعل ذلك إلا لموجب شرعى ، ولم يفعله عبثا ، أو ردا للحديث مع سلامته من القوادح والعلل ؛ وعلى كل حال فما كان هذا الترك أو هذه المخالفة إلا لأمور خفيت على ناقديه ، ولم يقفوا على أصول مذهبه فيها . منها :

أولاً — عدم اتصال علم الامام الأعظم بالأحاديث التى زعموا أنه ترك العمل بها ، وليس

أبو حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد أنبياء معصومين ، وإنما هم أئمة الهدى المجتهدون ، يخطئون ويصيبون ، ولهم على تقدير الخطأ أجر ، وعلى تقدير الإصابة أجران كغيرهم من المسلمين .

ثانيا — أن يكون خبر الواحد مخالفا لعموم القرآن الكريم أو ظاهره ، وأبو حنيفة لا يرى تخصيص عموم القرآن أو نسخه بخبر الواحد ، لأن عمومات القرآن وظواهرها إذا أفادت اليقين فلا يجوز تخصيصها ومعارضتها به ، لأن فى ذلك ترك العمل بالأقوى من الدليل بما هو أضعف منه وهذا لا يجوز . مثال ذلك : قوله صلى الله عليه وسلم : « الحرم لا يعيذ عاصيا ولا فاراً بدم » هذا الحديث يخالف قول الله تعالى : « ومن دخله كان آمنا » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب » يخالف عموم قول الله تعالى : « فاقرءوا ما تيسر منه » ، فخبر الواحد ظنى ، والقرآن الكريم يقينى ، ولا يجوز تقديم الدليل الظنى على الدليل اليقينى ، وتقديم أقوى الدليلين واجب دائما . فلا يجوز عنده ترك العمل بالكتاب الكريم لهذه الأحاديث .

ثالثا — أن لا يكون مخالفا للسنة المشهورة ، لأن الخبر المشهور فوق خبر الواحد ، لأنه أقوى منه ومقدم عليه ، حتى جازت الزيادة به على الكتاب الكريم ، ولم تجز بخبر الواحد ، فلا يجوز ترك الأقوى بالأضعف . مثال ذلك : الحكم بالشاهد واليمين ، فانه ورد مخالفا للحديث المشهور ، وهو ما روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « البينة على المدعى واليمين على من أنكر » . وبيان المخالفة من وجهين : أحدهما : أن الشرع جعل جميع الأيمان فى جانب المنكر دون المدعى ، لأن اللام تقتضى استغراق الجنس ، فمن جعل يمين المدعى حجة ، فقد خالف النص المشهور ولم يعمل بمقتضاه وهو الاستغراق. (ثانيهما) أن الشرع جعل الخصوم قسمين : قسما مدّعيا ، وقسما منكرا ، وجعل الحجة قسمين : قسما بينة ، وقسما يمينا ، وحصر جنس اليمين على من أنكر ، وجنس البينة على المدعى ، وهذا يقتضى قطع الشركة وعدم الجمع بين اليمين والبينة فى جانب ؛ والعمل بخبر الشاهد واليمين يوجب ترك العمل بموجب هذا الخبر المشهور ، فيكون مردودا . وعبر بعض العلماء عن هذا الحكم بأن يكون فى حديث الآحاد زيادة على القرآن الكريم ، فإن القرآن نص على : « شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان » . فالشاهد واليمين زيادة على القرآن الكريم .

رابعا — كون الحديث الذى تركه أبو حنيفة أو خالفه لم يصح عنده ، لأنه لا يصح الأخذ بحديث غير صحيح ، ولا يجوز بناء الأحكام الشرعية على مثل هذه الأحاديث .

خامسا — عمل الراوى بعد ما روى حديثا بخلاف ما رواه ، لأن الراوى إذا عمل بخلاف ما رواه ، فالعبرة عندهم بما رأى لا بما روى ، لأن الراوى العدل المؤتمن إذا روى حديثا

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل بخلافه دل ذلك على شيء ثبت عنده : إما نسخ ، وإما معارضة ، وإما تخصيص ، أو غير ذلك من الأسباب . مثال ذلك : ما روى الشيخان حديث ابن عباس مرفوعا : « من بدل دينه فاقتلوه » ، وصح من قوله : « إن المرأة لا تقتل » .

سادسا — كونه خبرا واحدا مما تعم به البلوى : أى كل أحد يحتاج الى معرفته ، لأن العادة تقتضى استفاضة نقل ما تعم به البلوى ، لأن فيما تعم به البلوى لا يقتصر النبى صلى الله عليه وسلم على مخاطبة الآحاد ، بل يلقيه الى عدد يحصل به التواتر والشهرة مبالغة فى إشاعته لحاجة الخلق إليه ، فانفراد واحد به قدح فيه . ومثاله : حديث الجهر فى الصلاة بالبسملة ، وهو ما رواه أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجهر بالبسملة ، فإنه لما شذ مع اشتهار الحادثة لم يعمل به ، وحديث مس الذكر الذى روته بسرة ، فإنه شاذ لانفرادها بروايته مع عموم الحاجة الى معرفته ، فدل ذلك على ضعفه ، إذ القول بأن النبى صلى الله عليه وسلم خصها بتعليم ذلك ، ولم يعلم به الصحابة مع شدة الحاجة إليه — لأن كل مسلم يجب أن يعرف هل مس الذكر ينقض الوضوء أو لا ينقضه — فالقول بأن الرسول خصها بهذا ولم يعلم به الصحابة شبه المحال .

سابعا — أن لا يكون متروك المحاجة به عند ظهور الاختلاف بين الصحابة ، فإنهم إذا تركوا الاحتجاج به مع وقوع الاختلاف فيما بينهم يكون هذا الخبر مردودا عند بعض الحنفية المتقدمين وعامة المتأخرين ، لأن الصحابة وهم الأصل فى نقل الدين لم يتهموا بترك الاحتجاج بما هو حجة والاشتغال بما ليس بحجة مع أن عنايتهم بالحجج أقوى من عناية غيرهم ، فترك الاحتجاج والعمل به عند ظهور الاختلاف فيما بينهم دليل ظاهر على سهو ممن رواه بعدهم ، أو على أنه منسوخ . مثال ذلك : ما روى عن زيد بن ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الطلاق بالرجال » ، فان الصحابة اختلفوا فى هذه المسألة ، فذهب عثمان وزيد وعائشة الى أن الطلاق معتبر بحال الرجل فى الرق والحرية كما هو مذهب الشافعى ؛ وذهب على وابن مسعود الى أنه معتبر بحال المرأة كما هو مذهب الحنفية ، وعن ابن عمر أنه يعتبر بمن رق منهما حتى لا يملك الزوج عليها ثلاث تطليقات إلا إذا كانا حرين ، وأنهم تكلموا فى هذه المسألة بالرأى ، وأعرضوا عن الاحتجاج بهذا الحديث — مع أن راويه وهو زيد فيهم — فدل ذلك على أنه غير ثابت أو منسوخ ، ولئن ثبت فهو مؤوّل بأن إيقاع الطلاق الى الرجال .

ثامنا — كونه خالف القياس الجلىّ أو الذى عضده حديث آخر .

تاسعا — معارضته حديثا آخر ثابتا عنده يؤيّده القياس .

عاشرا — طعن بعض السلف فيه كحديث القسامة ، فقد طعن فيه عمرو بن شعيب بن عبد الله بن عمرو بن العاص .

حادى عشر — كونه ورد فى الحدود والكفارات لأنها تسقط بالشبهة ، ويحتمل أن راويه كذب أوسها أو أخطأ ، فكان ذلك شبهة فى درء الحد . هذا مذهب الامام الكرخى .

٣ — قال المحققون : لا يستقيم الحديث إلا باستعمال الرأى فيه ، بأن يدرك معانيه الشرعية التى هى مناط الأحكام ، ولا يستقيم العمل بالرأى إلا بانضمام الحديث إليه . مثال الأول : أن بعض المحدثين سئل عن صبيَّين ارتضعا على شاة ، هل تثبت بينهما حرمة الرضاع ؟ فقال بأنها تثبت عملا بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « كل صبيين ارتضعا على ثدى حرم أحدهما على الآخر » فأخطأ لفوات الرأى ، وهو أنه لم يتأمل أن الحكم متعلق بالجزئية والبعضية ، وذلك إنما يثبت بين الآدميين لا بين الشاة والآدمى . ومثال الثانى : أن الرأى لا تنقض الطهارة بالقهقهة فى الصلاة لأنها ليست بخارج نجس كما أنها ليست بحدث خارج الصلاة ، ولكن ثبت بحديث الأعرابى أنها حدث ، فوجب ترك الرأى فيه ، وثبت أن الحديث لا يستقيم إلا باستعمال الرأى فيه ، وأن العمل بالرأى لا يستقيم إلا بانضمام الحديث إليه ، وأن كل واحد منهما لا يستقيم بدون الآخر .

٤ — فبمقتضى هذه القواعد وأمثالها ترك الامام أبو حنيفة العمل بأحاديث من الآحاد . ومما يدل على اعتنائه بالأحاديث أيضا أنه قدم العمل بالأحاديث المرسلة على العمل بالرأى ، فأوجب الوضوء من القهقهة وهى ليست بحدث فى القياس ، وإنما ترك القياس للخبر المرسل فيها ، ولم يوجبه فى صلاة الجنازة وسجود التلاوة لأن النص لم يرد إلا فى الصلاة ذات الركوع والسجود ، فاقتصر على مورد النص . ومن هذا الباب إذا أكل الصائم أو شرب ناسيا لم يفطر ، والقياس الفطر لوجود ما يضاد الصوم ، وهو قول مالك ، وترك أبو حنيفة فى هذا القياس لحديث « تم على صومك » ، وقدم قول الصحابى لاحتمال سماعه ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٥ — من علم هذا انهارت فى نظره دعواهم أن أبا حنيفة خالف أحاديث الرسول أو ترك العمل بخبر الواحد بلا حجة ، وثبت أنهم لم يفهموا قواعد الامام وأصوله ، وأن أبا حنيفة ما كان حاطب ليل يقبل كل خبر صح أو لم يصح ، ولكنه كان كبير العقل ، شديد الاحتياط فى الدين ، إماماً نقادا لا يقبل خبرا إلا بعد عرضه على محك النقد ووزنه بميزانه وتطبيقه على أصول الشرع ، فإذا ثبت عنده بعد ذلك صحته أخذ به ، وهذا يدل على أنه قد بلغ المرتبة العليا فى فهم القرآن والسنة وحكمة التشريع وأسراره .

السيد عفيفى

رأى الامام الغزالى فى مدعى التصوف

لم يمتحنا بما تعيا العقـول به　　حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم

هكـذا وصف العارف بالله البوصيرى الدين الإسلامى فى إجمال وإفهام ، فالإسلام من بين الأديان السماوية دين وضحت تعاليمه ، فليس بينها أصل غامض ، ولا فرع مبهم ، لايقتضى فهمها والعمل بها إلا الفطرة السليمة والطبيعة الخالصة من شوائب الشهوة والعناد . كانت آياته تتلى على العربى الجلف فى شعاب الجبال و بطون الأودية ، فتملك عليه نفسه وعقله ، ويلبى دعوة الله مخلصا

ولعل هذا المعنى من أنجع العوامل وأنجحها فى الدعوة إليه ، وجذب النفوس نحوه ، فهو فى واقعه وحقيقة أمره ، دين خوطب به العامى كما خوطب به الفيلسوف . على أنه ابتلى قـديما وحديثا بأناس نحلوه دعاوى كاذبة ، وألصقوا به تعاليم باطلة ، صادفت هـوى فى نفوس المتبطلين فدأبوا على نشرها وترويجها حتى كدرت من صفائه ، ونالت من بهائه ، تلك هى دعاوى الجـذب والشطح التى يتظاهر بهـا مدعو التصوف من أهـل البطالة ، الذين ثقلت نفوسهم بتكاليف الإسلام الصحيحة ، وأعرضوا عن فهم عقائده الحقة ، وأعجزهم كسب العيش من وجوهه المشروعة ، حتى استشرى شرهم ، وتفاقم خطبهم ، وحاول كثير من أولى الأمر بشتى الوسائل ردعهم فلم ينجحوا فى استئصالهم ، ولازالت جمهرة من المسلمين تؤمن بدجلهم وتهاب مكانهم ، وتحسن الظن بأحوالهم ، بل ما زال بعض الخاصة يؤمن بقداستهم ويعتقد فيما يدعون من أنهم أحباب الله وأصفياؤه ، وأنهم فى مقامات الوصول رفعت عنهم التـكاليف وأزيلت دونهم الحجب !

وإن مما يؤلم الغيور على الاسلام ويجرح عاطفته الدينية ، أن هؤلاء المتمخرقين قد يتخذهم دعاة السوء ورسل الشر من الأجانب عنوانا على الدين الاسلامى ، ويقدرون أثره فى نفوس أتباعه بما يظهره أولئك الدجالون من سوء فى القول والفعل واللباس والطعام ، وقد يلتقطون لهم صورا شمسية فى هيئات مزرية يتوسلون بها الى غاياتهم الدنيئة ، وهى تشويه جمال الاسلام وتصويره أمام الراغبين فيه بأبشع الصور ، ونعته بأقبح الأوصاف .

ولقد تنبه لخطر تلك الطائفة على الدين كثير من أهـل النظر والغيرة ، وكان أقدرهم على تصوير خطرهم رجل ابتلى بهم وبلاهم ، ومنحه الله بسطة فى العلم وقدرة فى البيان : ذلك هو الامام الغزالى ؛ وحرصا على حسن بيانه ولطيف معناه ، وخروجا من تهمة الـكذب ، أسوقه الى القارئين الـكرام دون تحوير . قال الامام الغزالى فى إحياء علوم الدين :

« وأما الشطح فنعنى به صنفين من الـكلام أحدثه بعض الصوفية :

« أحدها الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى ، والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة ، حتى ينتهى قوم الى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب ، والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب ، فيقولون : « قيل لنا كذا وقلنا كذا » ، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذى صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ، ويستشهدون بقوله : أنا الحق . وبما حكى عن أبى يزيد البسطامى أنه قال : سبحانى سبحانى ؛ وهذا فن من الكلام عظيم ضرره فى العوام ، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم ، وأظهروا مثل هذه الدعاوى ؛ فان هذا الكلام يستلذه الطبع ، إذ فيه البطالة من الأعمال ، مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ، ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة . ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدل ، والعلم حجاب ، والجدل عمل النفس ؛ وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق . فهذا ومثله مما قد استطار فى البلاد شرره ، وعظم فى العوام ضرره ، حتى من نطق بشىء منه فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة . وأما أبو يزيد البسطامى رحمه الله فلا يصح عنه ما يحكى ، وإن سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله عز وجل فى كلام يردده فى نفسه ، كما لو سمع وهو يقول : إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، فانه ما كان ينبغى أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية .

« الصنف الثانى من الشطح : كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة ، وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل ، وذلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط فى عقله وتشويش فى خياله ، لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه ، وهذا هو الأكثر ؛ وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره ، لقلة ممارسته للعلم ، وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعانى بالألفاظ الرشيقة ؛ ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ، ويدهش العقول ، ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منها معانى ما أريدت بها ، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ما حدث أحدكم قوما بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم » . وقال صلى الله عليه وسلم : « كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله » ؟ وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع ، فكيف فيما لا يفهمه قائله ؟ فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره . وقال عيسى عليه السلام : « لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم . كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء فى موضع الداء » . وفى لفظ آخر « من وضع الحكمة فى غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم ؛ إن للحكمة حقا ، وإن لها أصلا ، فأعط كل ذى حق حقه » .

ذلك هو نص كلام الغزالى ورأيه فى مدعى التصوف ؛ وللامام الغزالى مكانة بين المسلمين نرجو أن تلفت نظرهم الى تفهم كلامه والعمل به ؟

أبو الوفا المراغى

هل من فلسفة اسلامية ؟

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ مدير هذه المجلة معلقا على ما نشرته لى مجلة الأزهر فى عددها الأول لسنة ١٣٦٠ ه بعنوان « الفلسفة بين الوجود والفكر » ولكن لا ليرد عليه ، بل لأن مجلة الأزهر ترى من واجبها تنبيه قرائها الى ما فى بعض المذاهب الفلسفية من ضعف و « تهافت » إذا عرضها بعض الكتاب على صفحات هذه المجلة باسم الفلسفة . « ونحن ـ يقول حضرته ـ حين نقدم لقومنا ثمرة ما حصلناه من العلوم والفلسفة لا يجوز لنا أن نقدمها إلا « محاطة » من النقد والتمحيص والتفلية ، فإن المسلمين بما طولبوا به من إقامة مبدأ التثبت عملا بقوله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » ، لا ينبغى أن تحمل اليهم المعلومات إلا محاطة بوسائل التثبت والنقد لكى يستطيعوا أن يستصفوا منها اللباب المحض فيأخذوا به ، أو يتميزوا الظنى المرجوح فيعرفوه ولا يغتروا به . وقراء هذه المجلة ـ مجلة الأزهر ـ الذين يستنزلون المعرفة الحقة من ناحيتها ، لهم الحق فى هذا الاحتياط نفسه . لو سرنا على هذا السمت خدمنا المسلمين وقراء مجلة الأزهر خدمة تؤتى ثمراتها اليانعة مباركة موفورة ، وحميناهم من نفاية الآراء الضالة التى قد تبقى مادة للدراسة مدة طويلة قبل أن تأخذ طورا جديدا . . . ص ٥١ ، ٥٢ » .

***

وتعليق الأستاذ الكبير على كلمتى باسم هذه الغاية يفهم منه أن كلمتى كانت :

(١) تمثل مذهبا فلسفيا ، ومذهبا فلسفيا باطلا .

(٢) ثم يوحى هذا التعليق كذلك بأنه كان يجب علىَّ ـ كعالم أزهرى أولاً ، وكمشتغل بالفلسفة ثانيا ، وكمبعوث للازهر فى أوربا لغرض خاص أهمه معرفة الدفاع عن الدين ثالثا ـ على الأقل أن أشارك المجلة فى غرضها ، فلا أدع الكتابة فى ناحية فلسفية إلا محاطة بوسائل التثبت والنقد ليستخلص منها المسلمون اللباب المحض . . .

وفعلا تضمن تعليق عزته :

(١) التساؤل عن وجود فلسفة إسلامية .

(٢) ودحض ما صوره ، لنفسه ، مقالى « من مذهب فلسفى مادى وماله من نزعة إلحادية دلت المكتشفات الحديثة على تدهوره وسقوطه » .

(٣) و تحديد الغاية للكاتب فى الفلسفة ، و بعبارة أدق تحديد الغاية الصحيحة للتفلسف .

***

١ — تساءل حضرته عن وجود فلسفة إسلامية ، ثم ذكر « أنه لاتوجد فى الاسلام فلسفة مستمدة من الخارج يمكن أن توصف بالدينية أو الاسلامية ... وعليه إذا اعتبرت الفلسفة القديمة عتيقة رثة فلا يصيب الاسلام — من هذا الاعتبار — شيء . ص ٤٧ » .

والمعروف فى تاريخ الفلسفة أن الفلسفة (١) الدينية شيء آخر غير ما فى مصدر الأديان ، وأنها فقط عنوان على تراث الإغريق الفلسفى الذى اشتغل به رجال الدين . ومن اسم الدين الذى ينتمى اليه هؤلاء الرجال يشتق مؤرخو الفلسفة وصفا لما اشتغل به ذلكم فى تراث الاغريق من تنظيم أو شرح ، أو تعديل بحذف أو تأويل ، حتى لا تبدو معارضة الدين . فيقال الفلسفة المسيحية ، ويعنون بها مؤرخو الفلسفة مسائل الفلسفة الاغريقية التى اشتغل بها علماء المسيحية ، ويقال الفلسفة اليهودية ويقصدون بها أيضا مسائل الفلسفة الاغريقية ذاتها التى اشتغل بها علماء اليهود ، ويقال الفلسفة الاسلامية ، ويريدون بها كذلك تلك المسائل بالذات التى اشتغل بها نفر من علماء المسلمين .

فالفلسفة الدينية واحدة فى جوهرها عند مؤرخى الفلسفة . وتنوعها بين مسيحية ويهودية وإسلامية لاختلاف المذاهب الدينية التى كان ينتمى اليها ذلكم العلماء ، الاختلاف الذى من شأنه أن يجعل تغايرا فى كيفية التعديل أو الشرح للمسائل الاغريقية . وكثيرا ما تسمى الفلسفة الاسلامية بالفلسفة العربية . فليس ملحوظا فى هذه التسمية على الاطلاق صلتها بالدين نفسه .

والاحتمال إذاً الذى نفاه حضرة مدير المجلة « لمدلول الفلسفة الاسلامية » احتمال يعرض لهذا التعبير لا من حيث هو اصطلاح معروف لمؤرخى الفلسفة ولقراء الفلسفة والمتصلين بالثقافة الفلسفية .

٢ — ذكر حضرته أن ما كتبته ونشرته المجلة فى عددها السابق صحيح من حيث هو تصوير للمذهب المادى ولنزعته الفلسفية الالحادية . وبناء عن فهم هذا التصوير رأى حضرته أن يكشف عن ضعفه ... ليعين المسلمين على التثبت الوارد فى قوله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

وهذا غرض دينى نبيل فى ذاته . ولكن كلامى كما يبدو من عرضه لا يصور إلا تاريخا لتحول التفكير الفلسفى ، وتحول عناية الفكر الإنسانى من موضوع الى موضوع فى عصر من العصور لعوامل دعت الى هذا التحول .

فذكرت أن الفكر الإنسانى فى بدء تفلسفه كان يعنى ببحث الوجود وبحث ما وراء الطبيعة ، وكانت فلسفته لهذا فلسفة ميتافيزيكية . والعامل المشترك الذى حمل على بحث الوجود

(١) وهى غير فلسفة الدين

فى كل مدة بحثه (من قدماء اليونان الى آخر القرون الوسطى) طبيعة الثقافة فى ذلك الوقت — والثقافة من أهم عوامل تكوين الفلسفة — فثقافة الإغريق كانت الى حد كبير دينية ، وثقافة رجال الدين (منذ الميلاد الى عصر النهضة) كانت بطبيعة الحال كذلك دينية . وشأن الدين - أيا كانت قيمته - أن يعنى أولا وبالذات بتوجيه النظر الى ما وراء الطبيعة ؛ الى موجد الكون . وليس ذلك العامل هو التدين إذ لم يعرف التدين لفلاسفة الاغريق ؛ لمنشئى المدارس الفلسفية المختلفة حتى عصر النهضة .

ثم ذكرت أن البحث الفلسفى منذ عصر النهضة تحول الى بحث الطبيعة ، وعللت هذا التحول بخشية الباحثين من تعقب رجال الكنيسة ، إذا بحثوا فيما وراء الطبيعة وخالفوهم فى رأى من آرائهم ؛ وكذلك برغبة الباحثين فى أن يصلوا فى أبحاثهم الى يقين ترتضيه التجارب والتحديدات الرياضية . وليست هذه الرغبة بمحققة فى بحث ما وراء الطبيعة ، لأن ما وراء الطبيعة أوسع من محيط تفكير الإنسان فضلا عن أن يخضع لتجاربه . — وليس عامل التحول هنا (كما لم يكن عامل توجه الفكر هناك هو التدين) هو عداوة الدين أو نزعة إلحادية . وإن احتمل أن يكون أيضا كره رجال الكنيسة وعدم الخضوع لتعاليم الكنيسة ، كفكرة الخلافة فى السلطان عن الرب ، وفكرة صكوك الغفران . . . ولكن رجال الكنيسة ليسوا هم حوارى عيسى ، وتعاليم الكنيسة فى القرون الوسطى ليست هى المسيحية (١) — .

وإذا كان هذا التحول فى البحث عن « ما وراء الطبيعة » الى « الطبيعة » نفسها يحدد لنا بإيجاز المذهب الطبيعى Naturalism وهو محاولة شرح الطبيعة من الطبيعة ذاتها ، فلا يصور لنا لا فى قليل ولا كثير المذهب المادى Materialism لأن هذا المذهب له نواح ثلاث :

(أ) الناحية النظرية : وهى ناحية ميتافيزيكية تحاول شرح الطبيعة من ما وراء الطبيعة — على النقيض من المذهب الطبيعى — ؛ هى ناحية تفرض وجود شىء مستقل Substantia نشأ عنه هذا العالم ؛ هذا الشىء المستقل فهمه ديموقريط وإبيقور من فلاسفة الإغريق على أنه نوعان من المادة : نوع غليظ وهو أصل الأجسام ، ونوع دقيق وهو أصل النفوس . وفهمه هوبز Hobbes ولامترى Lamettrie وبوخنر Buchner من الفلاسفة المحدثين على أنه فى جوهره واحد وهو أصل الأجسام . أما الظواهر النفسية والعقلية فى نظرهم فخاصة من خواص الأجسام أو أثر من آثارها .

---

(١) هيجل الفيلسوف القسيس الالمانى أبان فى محاضراته عن فلسفة الدين فى جامعة هيدلبرج ضروبا كثيرة من التفرقة بين تعاليم الكنيسة فى القرون الوسطى والمسيحية . ومن أشهر هذه الفروق نسبته الى المسيحية مبدأ الوحدة فى التأليه .

ويسمى فهم فلاسفة الاغريق للمذهب المادى بالمذهب المادى الثنائى ، وفهم غيرهم من المحدثين بمذهب الوحدة للمادة .

(ب) والناحية العلمية (الأخلاقية) : وهى حصر الغرض من الحياة الانسانية فى التمتع بالملذات الحسية ، واحتقار القيم المثالية .

(ج) والناحية التاريخية : وهى اعتبار الجانب الاقتصادى فى الحياة هو الأساس المحدِّد لمصير المدنية حتى للثقافة العقلية .

على أن بعض فلاسفة المذهب المادى منذ القرن الثامن عشر أمثال هول باخ Holbach (الفيلسوف الألمانى المتوفى سنة ١٧٨٩ م) ولينين Lenin (الفيلسوف الروسى المتوفى سنة ١٩٢٤) قد نحا بالمذهب المادى فى شقه النظرى ناحية أبعد عن الفهم الحسى الساذج من أن هناك شيئا مستقلا اسمه المادة نشأ عنه الكون وما فيه من أجسام ونفوس . فالمادة فى نظر هذا البعض ليست إلا كلمة ــ وتعبيرا ــ تدل على معنى الوجود كما يبدو لنا فى أجزاء الكون وحوادثه ، وكما يتضح لنا هذا الوجود بالمعرفة شيئا فشيئا .

فالمذهب المادى إذاً فى جزئه النظرى ــ وهو الذى يمكن أن يفهمه رجال الدين أو مدافعو الدين على أنه يتعارض مع الدين ــ مذهب ميتافيزيكى . وأنا فيما ذكرته فى تصوير البحث الميتافيزيكى حتى عصر النهضة لم أتعرض الى التحديدات المختلفة للفلاسفة فيما عساه فيما وراء الطبيعة أن يكون علة للطبيعة والكون حتى أكون قد أشرت الى المذهب المادى جملة فضلا عن تصويره .

(٣) قصد حضرته أيضا من محاولة هدم المذهب المادى Materialism بعرض آراء أمثال المؤرخ جوستاف لوبون ، ومن ترجيح المذهب الروحى Spiritualism نصرة الدين من جهة الفلسفة : « فلنتخلص من فتنة الآراء الضيقة ولنستقبل علما أرفع وفلسفة أوسع نستشرق منهما نور الحق « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » ص ٥٢ . وبهذا يحدد مهمة التفلسف أو مهمة كاتب الفلسفة .

وهذا غرض دل تاريخ تفلسف الدين ، أو تاريخ اشتباك الفلسفة مع الدين لخدمة هذا الأخير ، ودلت بسيكولوجية الدين الحديثة ، على أنه غرض يسىء ــ من غير قصد ــ الى العقيدة فى الصميم . إذ تفلسف العقيدة ، فضلا عن أن يعقدها ويقلل من قداستها ، يعرضها للتقلب فى نظر البحث بين الصحة والخطأ . لأن الآراء الفلسفية نفسها التى تعالج الموضوع الذى يعالجه الدين ــ وهى الآراء الفلسفية الإلهية ــ والتى تجذَب أحيانا لغاية تأييد الدين ، عرضة للتبديل والتغيير ، وموضع للتخطئة والتصويب .

وما أحكم نظر (كانت) إذ يقول : « لندع القول فيما وراء الطبيعة للدين فلسنا بقادرين على أن نأتى فيه بيقين » . وما أحكم نظر ماكس شيلير Max Scheler (الفيلسوف الألمانى المتوفى سنة ١٩٢٨) إذ يقول : « للدين قيمته واعتباره فيما يحكيه عن الله ، وللفلسفة قيمتها واعتبارها فيما تحكيه عن الانسان » .

إن محاولة الاستدلال على صحة العقيدة الدينية فى الله من طريق الفلسفة ظاهرة من ظواهر عدم الثقة باستقلال العقيدة فى وجودها بذاتها .

لندع عاطفة الانسان الدينية فى قوتها وحرارتها ، فإن وضع العقيدة موضع النقاش والنقد إضعاف لقوة الإيمان بها .

* * *

وأخيرا يطلب النقد العلمى الحديث ، إذا أريد إبطال رأى فلسفى أو تأييد رأى آخر ، أن يلجأ الكاتب الى الفلسفة ذاتها . ومعنى ذلك أنه فى حل من أن يلجأ الى الدين فى إبطال المذاهب الفلسفية أو تأييدها ، ولكن فقط تحت عنوان دينى وليس باسم الفلسفة . . فالمزج لم يعد وسيلة من وسائل البحث العلمى الحديث ، وإن بقيت له قيمته فى نظر الشعب والجمهور .

والإمام الأكبر المراغى ، وهو قائد نهضة الأزهر الدينية والعلمية ، فى مناقشة رسالة « العرف » للشيخ أحمد فهمى أبى سنة بدار كلية الشريعة فى ٢٠ يناير سنة ١٩٤١ ، قد حدد شعار البحث فى الأزهر الجديد : وهو الفصل بين القيم الذاتية ، لأنه أقر التفرقة بين الفقه الاسلامى والدين ؟

محمد البهى
مدرس علم النفس والفلسفة
بكلية أصول الدين

الفلسفة بين الوجود والفكر

رأى حضرة الأستاذ الدكتور محمد البهى أن يلاحظ على ما كتبناه تعقيبا على ما نشره تحت العنوان السابق فى العدد الماضى ، وقد نشرت ملاحظاته ورأيت التعقيب عليها ، لا إيثارا للجدل ، ولكن لأن فى تعيين الأسلوب الأكمل فى مزاولة الفلسفة فى هذا العصر ، حدا فاصلا بين الأوهام وإن دعيت بالفلسفة ثلاثين قرنا متوالية ، وبين الحقائق العلمية التى تجلت فى هذا العهد ، لا سيما ونحن هنا فى طليعة نهضة ثقافية يجب أن نجردها من كل ما يلابسها من أضاليل سابقة .

وما أحكم نظر (كانت) إذ يقول : « لندع القول فيما وراء الطبيعة للدين فلسنا بقادرين على أن نأتى فيه بيقين » . وما أحكم نظر ماكس شيلير Max Scheler (الفيلسوف الألمانى المتوفى سنة ١٩٢٨) إذ يقول : « للدين قيمته واعتباره فيما يحكيه عن الله ، وللفلسفة قيمتها واعتبارها فيما تحكيه عن الانسان » .

إن محاولة الاستدلال على صحة العقيدة الدينية فى الله من طريق الفلسفة ظاهرة من ظواهر عدم الثقة باستقلال العقيدة فى وجودها بذاتها .

لندع عاطفة الانسان الدينية فى قوتها وحرارتها ، فإن وضع العقيدة موضع النقاش والنقد إضعاف لقوة الإيمان بها .

***

وأخيرا يطلب النقد العلمى الحديث ، إذا أريد إبطال رأى فلسفى أوتأييد رأى آخر، أن يلجأ الكاتب الى الفلسفة ذاتها . ومعنى ذلك أنه فى حل من أن يلجأ الى الدين فى إبطال المذاهب الفلسفية أو تأييدها ، ولكن فقط تحت عنوان دينى وليس باسم الفلسفة . . فالمزج لم يعد وسيلة من وسائل البحث العلمى الحديث ، وإن بقيت له قيمته فى نظر الشعب والجمهور .

والإمام الأكبر المراغى ، وهو قائد نهضة الأزهر الدينية والعلمية ، فى مناقشة رسالة « العرف » للشيخ أحمد فهمى أبى سنة بدار كلية الشريعة فى ٢٠ يناير سنة ١٩٤١ ، قد حدد شعار البحث فى الأزهر الجديد : وهو الفصل بين القيم الذاتية ، لأنه أقر التفرقة بين الفقه الاسلامى والدين ؟

محمد البهى
مدرس علم النفس والفلسفة
بكلية أصول الدين

الفلسفة بين الوجود والفكر

رأى حضرة الأستاذ الدكتور محمد البهى أن يلاحظ على ما كتبناه تعقيبا على ما نشره تحت العنوان السابق فى العدد الماضى ، وقد نشرت ملاحظاته ورأيت التعقيب عليها ، لا إيثارا للجدل ، ولكن لأن فى تعيين الأسلوب الأكمل فى مزاولة الفلسفة فى هذا العصر ، حدا فاصلا بين الأوهام وإن دعيت بالفلسفة ثلاثين قرنا متوالية ، وبين الحقائق العلمية التى تجلت فى هذا العهد ، لا سيما ونحن هنا فى طليعة نهضة ثقافية يجب أن نجردها من كل ما يلابسها من أضاليل سابقة .

يشهد كل من اطلع على ما كتبت أنى تجـردت للموضوع ولم أمس ما عداه ، وسأسلك فى هذا التعقيب ذلك السمت نفسه فلا أجاوزه ، ولذلك لا أناقش فى غيره مما سمح لنفسه به حضرة الدكتور من العبارات .

بدأ الأستاذ ملاحظاته بتقرير أن الغرض من إطلاق كلمات يهودية ومسيحية وإسلامية على الفلسفة ، هو تعيين ما اشتغل به من الفلسفة الاغريقية أصحاب هذه الأديان الثلاثة . والذى أراه أنا أن هذه التسمية لا تصح ، وخاصة فى معرض الكلام على الفلسفة عند المسلمين . وكل ما قرأناه فى كتب الفرنجة أنهم يعبرون عن هـذه الفلسفة بقولهم : (الفلسفة عند العرب) La philosophie chez les Arabes ، وقد أردفوا ذلك بقولهم : إن عناية المسلمين بالفلسفة كانت قليلة فليس لهم فلسفة مستقلة .

ثم قال حضرته ما خلاصته :

« إن كلامى لا يقصد منه إلا تصوير تاريخ تحول التفكير الفلسفى من البحث فيما وراء الطبيعة ، الى البحث فى الطبيعة ، وكانت ثقافة الإغريق والاوروبيين الى عصر النهضة دينية ، وشأن الدين أن يعنى قبل كل شىء بتوجيه النظر الى ما وراء الطبيعة ، الى موجد الكون . وعللتُ هذا التحول بخشية الباحثين من تعقب رجال الكنيسة إذا خالفوهم فى رأى مما وراء الطبيعة ، ورغبة الباحثين فى أن يصلوا بأبحاثهم الى يقين ترتضيه التجارب والتحديدات الرياضية (؟) ، وليست هذه الرغبة بمحققة فى بحث ما وراء الطبيعة ، لأنه أوسع من محيط تفكير الانسان ، فضلا عن أن يخضع لتجاربه(؟). وليس عامل التحول هنا هو عداوة الدين أو نزعة إلحادية ؛ ولا يصوِّر هذا التحول المذهب المادى ، لأن هذا المذهب له نواح ثلاث : نظرية ، وعلمية ، وتاريخية ، وفى هذه النواحى يتعارض هو والدين ؛ ولكننى فيما ذكرته لم أتعرض للتحديدات المختلفة للفلاسفة فيما عسى أن يكون علة للوجود ، حتى أكون قد أشرت الى المذهب المادى جملة فضلا عن تصويره . فهذا المذهب هو الذى يتهمه رجال الدين بأنه يناقض الدين . وأنا فيما ذكرته لم أتعرض الى التحديدات المختلفة للفلاسفة فيما عساه أن يكون علة للطبيعة والكون حتى أعتبر أنى قد أشرت إليه فضلا عن تصويره » .

وأنا أعقب على هذا بقولى :

الفلسفة من المحاولات العقلية التى لا يمكن وضع تعريف جامع لها . جاء فى المعجم الفلسفى للأستاذ جوبلو Goblot قوله : « لما كان لكل مذهب فلسفى وجهة نظر خاصة فى تحديد الفلسفة ، وعلاقتها بالعلوم وبالحياة ، فانه من المحال أن يعطى لهذه الكلمة تعريفا يصح عليها جميعا » انتهى .

ولكن للفلسفة من ناحية عامة معنى مستقرا فى وجدان الناس ، وقد عبرت عنه دوائر المعارف بقولها : « الفلسفة إلمام عام بالكائنات والأصول والأسباب »

كذلك انقسمت الفلسفات الى مذاهب شتى من حيث وجود أصل حيوى عام مستقل عن المادة، أو عدم وجوده ، وظهور الحياة فى الأحياء كثمرة للتفاعلات الكيماوية . هذه المذاهب يجمعها اسمان عامان : المذهب المادى والمذهب الروحى . Matérialisme et Spiritualisme . فالأول يقول بوجود كائنات غير مادية . وفسر المعجم الفلسفى هذه الكائنات بقوله : « إنها لا تقع تحت سلطان الحواس وليس لها صورة ولا حجم ولا حيز الخ ؛ منها مذهب ديكارت فانه كان يقول بوجود نوعين من الكائنات ، أولهما مادى والآخر روحانى ؛ ومنها مذهب لبنتز ، ومذهب باركلى ، وكانا لا يسلمان بوجود صحيح إلا للكائنات الروحانية »

وقد اعترف الدكتور البهى نفسه فى مقدمة بحثه ، بأن الفلسفة لا يحدها تعريف واحد . ثم عاد فقال : « إنها ترجع الى موضوعين أساسيين: الوجود والفكر » وانتهى من ذلك الى القول بأنه « قد تحول البحث فى الفلسفة عما وراء الطبيعة الى الطبيعة نفسها ، وعن علة الكون الى الكون نفسه »

ثم قال : « ولا شك أن نتائج البحث النظرى فى الإلهيات تبعد كثيرا عما يطلبه المقياس العلمى الحديث . فتعرُّض الباحث لها — على أنها الأهم كما كان الحال فى القديم — حكمٌ منه على نفسه بالعزلة عن بيئة الوقت العلمية ، وعن موضوع التنافس فى البحث . ولذا رأى (كانت) أن اختصاص الفلسفة كعلم ، هو الناحية العملية وتحديد الحياة الواقعة . أما القسم الالهى فان بحثه فلا يحق لها أن تطلب لهذا البحث صفة العلم اليقينى » انتهى .

فاذا كانت الفلسفة فى قسميها العامين لا يمكن أن تخرج عن كونها إما روحية كمذهب ديكارت وسبينوزا ولبنتز وباركلى وغيرهم ، وعدد لا يحصى من أئمة الفلاسفة المحدثين وعلى رأسهم العبقرى (هنرى برجسون) Bergson الذى توفى فى الشهر الماضى ؛ وإما هى فلسفة مادية لا تعتد بغير البحث المادى ، ولا تتلمس فى تعليلاتها للحياة والعقل والروح الانسانية غير العلل المادية ؛ قلنا إذا كانت الفلسفة لا تخرج عن هذين القسمين ، فأين يصح أن توضع الفلسفة التى يكتب عنها الدكتور البهى والتى قطع صلتها بما فوق الطبيعة ؟

يمكن أن يقال إنها لا توضع فى واحد منهما ، لأنها اختارت لنفسها خطة مستقلة تجرى عليها فى البحث عن الحقائق غير متقيدة بصبغة معينة .

نقول : هذا كان يصح لو لم تقيد نفسها بأصول مذهبية مقررة ، وتحد للآخذ بها مجال البحث تحديدا لا يسمح له بتخطيه ، فاذا كان الدكتور البهى يتنصل من تصوير المذهب المادى محتجا بأنه لم يتعرض للتحديدات المختلفة للفلاسفة ، فأى تحديد أشد من قطع الصلة بين

الفكر الانساني وعالم ما وراء الطبيعة ، وبينه وبين علة الكون ، وحصر التفكير كله في الطبيعة المادية ؟ أليس في قطع هذه الصلة تأكيد ضمني بأن ليس وراء الطبيعة شيء يمكن التحسس منه ، ولا للبحث في علة الكون موجب يوجبه ، بعد ما تبين أن الوجود قائم بذاته ، ولا يحتاج في قيامه الى قيوم فوقه ؟ أليست هذه ميتافزيكا أشد تطرفا واستبدادا من ميتافيزكة هوبس ودلامتري وبوخنر ؟

ومن ناحية أخرى :

إن مقالة الدكتور البهى تصلح أن تصوِّر نزعة لفلسفة معينة ، أكثر مما تصلح أن تكون مدخلا على الفلسفة على وجه عام ، فقد ذكر الاستاذ في أول كلامه أن الفلسفة لا يحدها تعريف واحد ، وليس لها ضابط عام الخ ؛ وكل الناس يعرفون أن الخلافات في المبادئ والأصول الفلسفية لا تقف عند حد ، وخاصة في العصر الحاضر ، وأن من المخالفين للمذهب الذى يقطع الصلة بما فوق الطبيعة رجالا يعتبرون من أرقى من أنجبتهم الانسانية ، لا يقطعون الصلة في الفلسفة بمافوق الطبيعة ، ويرون لهذه الصلة ضرورة عقلية وعلمية ؛ فهل نغفل ذكر مذاهب كل هؤلاء الفحول في عرض ذكر الفلسفة ، ونكتفي بذكر مذهب واحد من أشد المذاهب المادية تطرفا ، فيتوهم القارئ أن الفلسفة قد تأدت على وجه عام الى هذه البيئة القاحلة ؟

يقول الدكتور البهى في بيان مؤدى هذا المذهب : « إن نتائج البحث النظرى في الإلهيات تبعد كثيرا عما يطلبه المقياس العلمى الحديث » . والذى أفهمه أنا منه أن مؤسسه الأوروبى يقصد بالبحث النظرى في الإلهيات مسائل ما يسمونه عندهم بعلم التيولوجيا ، وهى مسائل كهنوتية متشعبة مبنية على الآراء والظنون والنُقول ، لا مجرد القول بوجود خالق مدبر للكائنات لا تدركه الأبصار ، وتعجز عن فهم كنهه العقول . لأن المقياس العلمى الحديث لم يأب الاعتراف بالأثير كافتراض علمى لا بد منه لإمكان تعليل أكثر الظواهر ؛ والأثير لم يره أحد ، ولا يعقل توافر صفاته في شيء من الأشياء . فالذين لم يأنفوا أن يفترضوا ما لم يروه ، وأن ينحلوه صفات لا تعقل ، ليتوصلوا بذلك الى تعليل بعض الظواهر الطبيعية ، لا يجوز لهم أن يعتبروا البحث في وجود قدرة أزلية حكيمة بعدا عن المقياس العلمى الحديث .

أما قول (كانت) إن اختصاص الفلسفة كعلم لا يجوز أن يدخل فيها القسم الإلهى ؛ فهو قول لا غبار عليه ، ولكن من ناحية اعتبار الفلسفة علما ، لأن العلم لا يصح إلا بالتجربة ، والإلهيات غير مادية لا تخضع للتجربة . فتحصيل اليقين بالإلهيات من فلسفة منتحلة اسم العلم غير ممكن لهذا السبب .

ولكن اعتبار الفلسفة علما أو انتحال الفلسفة مهمة العلم ، قد انقضى زمنه منذ قرون ، بعد وضع (بيكون) Bacon الدستور العلمى ، وبعد تحديده مناطق النشاط العقلى ، وتسمية

كل منطقة باسمها الحقيقي. فليس فى عصرنا الراهن من يطلق كلمة فلسفة على العلم. فالعلم يبحث فى الكائنات التى تقع تحت الحس وتتناولها التجربة، وأما الفلسفة فتنظر فى مقررات العلوم نظرة إجمالية، وتستخرج منها بأدواتها من الاستقراء والاستدلال والاستنتاج والتحليل والتركيب، معرفةً عامة عن الوجود والموجودات والأصول والعلل.

وللفلسفة طريق مَهْيع يعرفها فيلسوف كونيجسبرج الكبير (كانت) تأدى من طريقها الى درجة اليقين بالخالق الحكيم، والى وجود الروح وخلودها بعد الموت.

وهل الفلاسفة الذين بلغوا درجة اليقين من هذه العقيدة، ويعتبرون من أكبر أقطاب الفلسفة العصرية، وصلوا اليه إلا من طريق النظر العقلى، والاستدلال المنطقى؟ ألا توجد مبادئ عقلية ضرورية هى فى تحصيل اليقين فى مثل قوة الحس بل أشد؟

وإذا كانت الفلسفة تبرأ من الذين يتأملون فى الكون، لتعرُّف علة الوجود فى عالم ما وراء الطبيعة، فأى أداة ترجى بعدها لتحصيل حكم يثلج عليه الصدر إثباتا أو (نفيا) فى هذه المسألة؟

أليس تجريد الفلسفة من النظر فيما فوق الطبيعة يعتبر بعد هذا من تعاليم الماديين الأقحاح، والفلسفة التى تقول به تعتبر مادية متطرفة؟

تفلسف الدين يضر أكثر مما ينفع!

قال الدكتور البهى ما ملخصه:

«قصد حضرته (يعنينى) هدم المذهب المادى بعرض آراء أمثال المؤرخ جوستاف لوبون لنصرة الدين من جهة الفلسفة. ثم قال (يعنينى أيضا): فلنتخلص من فتنة الآراء الضيقة، ولنستقبل علما أرفع، وفلسفة أوسع، نستشرق منهما نور الحق. وبهذا يحدد (يريدنى كذلك) مهمة التفلسف أو مهمة كاتب الفلسفة. وهذا غرض دل تاريخ اشتباك الفلسفة مع الدين، ودلت بسيكولوجية الدين أنه يسىء الى العقيدة فى الصميم الخ الخ».

ونحن نقول:

إننا بما قلناه لم نرد تحديد مهمة الفلسفة ولا مهمة كاتبها، وكيف نُتهم بذلك ونحن القائلون فيما كتبناه فى ملاحظاتنا: «علينا أن نمضى مع العلم والفلسفة حيث مضيا، وأن نجول معهما حيث جالا، ولكن لا يجوز لنا أن نقف معهما حيث وقفا من تعاليم هما نفساهما يعتقدان أنها وقتية، بعد ما بلغا رشدهما، وتحققا أن الوجود حافل بالمجهولات، وأن اكتشافا جديدا قد يُحدث فيهما انقلابا ما كان يخطر على قلب أو سمع الناس تخيلا».

فقولنا: علينا أن نمضى مع العلم والفلسفة حيث مضيا، وأن نجول معهما حيث جالا، معناه أن لا نضع فى سبيلهما العراقيل، وأن ندعهما حرين فى مجاليهما، فكيف نُتهم مع هذا

بأننا نحدد للفلسفة مهمتها أو مهمة كاتبها ؟ لا محل لهذا الاتهام ، ولكننا ننصح مزاولها أن لا يقف معها حيث وقفت من تعاليم هى نفسها تعتقد أنها وقتية بعد ما بلغت رشدها . فهل نلام على هذا الاحتياط الذى أصبح شعار أهلها وأهل العلم فى هذا الزمان الأخير كما رأيت ؟

يقول الدكتور البهى : إنى سلكت هذا المسلك لنصرة الدين ، على حين أنى لم أذكر الدين فى كل ما كتبت ، وإنما ذكرت العقل والتبصر والاحتياط وعدم الانخداع بالمعلومات المؤقتة ، واستشهدت بأقطاب العلم العصرى على ضرورة وقوف هذا الموقف إزاء جميع المقررات العلمية والفلسفية . وقد حاول الدكتور البهى أن يحط من أقدار هؤلاء الأقطاب كأنهم أتوا أمرا إدًّا ، فوصف أولهم بأنه مؤرخ ، وأن الباقين من أمثاله . والواقع أن الدكتور جوستاف لوبون فيلسوف وطبيعى كبير ، واليه يرجع الفضل فى تحليل المادة وإحالتها الى قوة ، وهو أكبر اكتشاف علمى حدث فى القرن العشرين . وأن مارى جان جويو من أشهر الفلاسفة المعاصرين ، وقد اشتهر كتابه (لا دينية المستقبل) فى العالم كله . أما سبنسر فأشهر من أن يذكر ، وكذلك العلامة الكبير هنرى بوانكاريه ، الرياضى الجليل وعضو المجمع العلمى الفرنسى . فهؤلاء أئمة عالميون ليس فى المشتغلين بالعلم والفلسفة من يجهلهم ، وهم ليسوا متدينين ولا من أنصار التدين ، ولم يقولوا شيئا يوجب السخط عليهم ، فهم وعدد لا يحصى من أمثالهم الأقطاب يبينون خطر الانخداع بالعلم والفلسفة ، ويهيبون بالناس الى استقبال عهد جديد لهما ، وهذا لا يتأتى حدوثه إلا بعد تحطيم الأوهام المحيطة بهما . فهل أساؤا هم وأسأنا نحن فى وقوفنا هذا الموقف المشرف للعقل الانسانى ، والمبشر بفتوحات عظيمة فى العلم والفلسفة ؟

يقول الأستاذ البهى : إن اشتباك الفلسفة مع الدين يسىء الى العقيدة فى الصميم . ومعنى هذا أن الدين لا يقوى على منازلة الفلسفة ، فاذا حدَّث الدين نفسه بذلك أصيب فى الصميم .

وأنا مع عدم ذكرى للدين فيما كتبت ، ومع عدم تحاملى على الفلسفة إلا من الناحية التى يحمل عليها منها الأقطاب الذين أفاقوا من غرورها القديم ، أحب أن أرى كيف تصبح فلسفة أساسها العقل والعلم والدليل ، خطرة على دين أساسه العقل والعلم والدليل ؟

على أن القول الذى أتى به الدكتور البهى قرأناه كثيرا فى كتب الفلاسفة الماديين ، ولكنهم يوجهونه الى أديان ليس أساسها العقل والعلم والدليل ، وليس يتجه إلينا منه شىء ، فنحن على دين نفخر بأنه يقاوم كل حملة يمكن أن تحملها عليه أية فلسفة فى العالم ، ولولا ذلك لكنا شاكين فيه ، وقد خبرنا ذلك بأنفسنا ، فإن كان فى الأرض من يستطيع أن يعطينا مثالا من صراع دينى فلسفى ، يصاب منه الاسلام فى الصميم ، فليتفضل علينا به ، لنريه أنه واهم فيما يقول . ألا إن أخوف ما أخافه على المسلمين ، وخاصة على علمائهم ، أن يتسرب إليهم هذا الوهم من الفلسفة الى هذا الحد فلا يبقى لهم دين !

وقال الدكتور البهى : « إن محاولة الاستدلال على صحة العقيدة فى الله من طريق الفلسفة ، ظاهرة من ظواهر عدم الثقة باستقلال العقيدة فى وجودها بذاتها . لندع عاطفة الانسان الدينية فى قوتها وحرارتها ، فإن وضع العقيدة موضع النقاش والنقد إضعاف لقوة الإيمان بها » .

ونحن نقول :

إن الاستدلال على صحة العقيدة من طريق النظر والتأمل ، هى الوسيلة التى اتفق الفلاسفة والعقلاء قديما وحديثا على القيام بها . ولم يقل أحد من المفكرين إنها ظاهرة من ظواهر عدم الثقة باستقلالها ، بل لا يفهم هنا معنى لاستقلالها ووجودها بذاتها ، وهى ثمرة عقلية لا أقل ولا أكثر .

إن العقيدة مدرك عقلى يقوى ويضعف ويزول ككل مدرك عقلى آخر . وقد لجأ أهل الأديان جميعا قديما وحديثا الى النظر والاستدلال لتحصيل العقيدة ، واتفق الفلاسفة القدامى والمحدثون على تسخير المنطق وقوى العقل فى هذه السبيل ، وزاد الدين الاسلامى على هؤلاء جميعا فطالب كل معتقد بالدليل ، حتى قال أصوليوه : إن إيمان المقلد غير جائز ؛ فهل لم يفطن كل هؤلاء الى أن هذا الجهاد العقلى منهم لتثبيت العقيدة ، ظاهرة من ظواهر عدم الثقة باستقلالها ؟ وما معنى استقلال العقيدة ووجودها بذاتها مقطوعة عن جميع وسائل التفهم والتعقل والتدليل ؟ وهل التفهم والتعقل والتدليل شىء غير الفلسفة الحرة من قيود الماديين ؟

الفلسفة لا تكافح إلا بفلسفة مثلها لا بالدين .

قال الدكتور البهى : « إذا أريد إبطال رأى فلسفى أو تأييده وجب أن يلجأ فى ذلك الى الفلسفة لا الى الدين » .

ونحن نقول : يشهد الله والناس أننا لم نلجأ فى يوم من أيام حياتنا فى مكافحة رأى فلسفى الى الدين . ألم ير نى الدكتور قد لجأت فى مكافحة ما كتبه الى آراء كبار الفلاسفة الأوربيين ، وهل فى كل ما كتبته ذكر الدين أو الى مخالفته للدين ؟

وإنى فى كل ما حاولته فى مؤلفات سابقة لى ، وأحاوله فى هذه المجلة ، أعمل على حماية النابتة الاسلامية من الانخداع بكل ما يرد الينا محمولا فى كتب الدراسة من الآراء المضللة ، فى عهد وضعت فيه جميع الآراء العلمية ، والمذاهب الفلسفية فى الميزان ، واعترف فيه بأن أبعد ما كان يظن خلوصه من التجريح ، لا يخلو من عوج يجب تقويمه ، حتى لا يؤدى فيما يبتنى عليه الى انهيار شنيع .

هذه الحالة النفسية الجديدة للعلماء الأوربيين فضلا عن أنها لا يجوز أن تؤلمنا ، يجب أن تسرنا الى حد بعيد ، لأن ما نحصله بعد اليوم ، ونحن على هذه الحالة من الحذر ، والخلوص

من الانخداع ، يكون إما حاصلا على جميع ضمانات الحق اليقين ، وإما موسوما بطابع من الشك حتى يُفتح على الناس فيه بسلطان مبين .

أى موقف أولى بطلاب الحقائق ؟ أأن يعيشوا فيما يسمونه بالعلم والفلسفة فى ضلال يزيدهم كل يوم بعدا عن الحق ، ودنوا من الباطل ، وتغلغلا فى العماية ، أم أن يحيطوا علما بحقيقة موقفهم فلا ينخدعوا به ، وخاصة إذا كان هذا التثبت يقوم به اليوم أقطاب الفلسفة والعلم فى بلاد المتمدنين ؟

وإنى مختتم هذه الملاحظات بما اختتمت به الملاحظات السابقة وهو :

« علينا أن نمضى مع العلم والفلسفة حيث مضيا ، وأن نجول معهما حيث جالا ، ولكن لا يجوز لنا أن نقف معهما حيث وقفا من تعاليم هما نفساهما يعتقدان أنها وقتية ، بعد ما بلغا رشدهما ، وتحققا أن الوجود حافل بالمجهولات ، وأن اكتشافا جديدا قد يُحدث فيهما انقلابا ما كان يخطر على قلب أوسع الناس تخيلا .

« ولم يأت على الناس عهد شهد العلم فيه على نفسه بالعجز ، واعترفت فيه فلسفته بالقصور ، مثل العهد الذى نعيش فيه ؛ فلنتخلص من فتنة الآراء الضيقة ، ولنستقبل علما أرفع ، وفلسفة أوسع ، نستشرق منهما نور الحق ، « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

محمد فريد وجدى

اعتـــــذار

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد البهى مقال جديد من سلسلة المقالات الفلسفية التى وعد بنشرها فى مجلة الأزهر ، اضطررنا الى إرجائه للعدد المقبل لضيق المقام ، وسننشره فى العدد المقبل . وقد اضطرنا هذا السبب نفسه لإرجاء نشر مقالنا فى السيرة المحمدية ومقالات أخرى جمعت حروفها ولم نجد لها مكانا فى هذا العدد لضرورة نشر فتاوى جاءت متأخرة . فنعتذر لحضرات الكرام الكاتبين ، ونعدهم بنشر ما أرسلوه فى العدد المقبل ، إن شاء الله .

فى بلاغة القرآن

حدثتك فى حديث مضى عن بعض الأسرار البلاغية فى قوله تعالى : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين » . ولست أزعم أنى أشرفت على الأمد ، وأوفيت على معجزة الأبد فيما أفضت القول فيه « فان هذا أمر ضيق كثير الالتواء لمن تلمس جوانبه ، واقتحم مصاعبه ، وما أشبه القرآن فى تركيب إعجازه ، وإعجاز تركيبه ، بصورة كلامية عن نظام هذا الكون الذى اكتنفه العلماء من كل جهة ، وتعاوروه من كل ناحية ، وأخلقوا جوانبه بحثا وتفتيشا ، ثم هو بعد لا يزال عندهم على كل ذلك خلقا جديدا ، ومراما بعيدا ، وإنما بلغوا منه إذ بلغوا نزرا تهيأت لضعفه أسبابه ، وقليلا عـرف لقلته حسابه ؛ وبقى وراء ذلك من الأمر المتعذر الذى وقفت عنده الأعذار ، والابتغاء المعجز الذى انحط عنده قدر الانسان ، لأنه مما سمت به الأقدار » . وإنما الذى أستطيع أن أزعمه فى غـير ما خيلاء ولا تطاول ، أنى استطعت بتوفيق الله أن أتوسم هذه الآية على ضوء العلم الحديث ، وأن ألقى على هذا التشبيه المعجب الذى احتوته ، بصيصا من النور إخاله أضاء جوانبه ، وبين دقائقه ، وجماها على أعين الناس لعلهم يشهدون أن هذا القرآن « لا تنقضى عجائبه » كما قال الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم ، وأن الكلمة فيه ليست كما تكون فى غيره « بل وجه السمو فيها على الكلام أنها تحمل معنى ، وتومىء الى معنى ، وتستتبع معنى ، وهذا ما ليس فى طاقة البشر ، وهو الدليل على أنه « كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

لقد جاء هـذا المثل العبقرى متمما للصورة البيانية الرائعة التى رسمها الله لمن أنفق ماله رئاء الناس ، وهو غير مؤمن : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلدا ، لا يقدرون على شىء مما كسبوا » ، فإنه سبحانه لما ضرب مثل من أنفق ماله رئاء الناس وهو غير مؤمن ، ذكر ضـده بتمثيل محسوس للذهن ، كى يتصور السامع تفاوت ما بين الضدين ، ويختار لنفسه أنسب الأمرين ، وأطيب المنزلتين ؛ وهـذا من بديع أساليب فصاحة القرآن الكريم . ومن يقايس بين المثلين يجد أنه تعالى لما وصف صاحب النفقة بوصفين قابل ذلك هنا بوصفين ؛ فقوله : « ابتغاء مرضاة الله » مقابل لقوله : « رئاء الناس » ، وقوله : « وتثبيتا من أنفسهم » مقابل لقوله : « ولا يؤمن بالله واليوم الآخر » لأن المراد بالتثبيت توطين النفس على المحافظة عليه وترك ما يفسده ، ولا يكون إلا عن يقين بالآخرة .

وهنا بدأ بالوصف الثابت وهو كونها بربوة ، ثم بالوصف المعارض وهو أصابها وابل ، وجاء فى وصف صفوان قوله : « عليه تراب » ثم عطف عليه بالتاء ، وهنا لم يعطف بل أخرج صفة ، على ما ذهب إليه أثير الدين . ولو أنعم الناس النظر فى هذه الصورة البيانية الرائعة ، وجعلوها نصب أعينهم ، وتفطنوا لأسرارها ، لحببت إليهم البذل ابتغاء مرضاة الله ، وكرهت إليهم المن والأذى ، فرقا من أن يبطل الله بذلهم ، ويأباه عليهم كما أباه على الكفار والمنافقين : « قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين ؛ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كُسالى ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون » ، « إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم » ، « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به ، أولئك لهم عذاب أليم ، وما لهم من ناصرين » .

لقد توهمت فى هذه الآية الأخيرة أنها أتت على غير وجهها البلاغى ؛ ولو جاءت عليه لقيل « لو افتدى به » بدون الواو ... فما سر هذا القلب ؟ وما معنى مجىء هذه الواو ؟ ذهب كثير من العلماء الى أنها زائدة ، وأنا أرى فى هذا الموطن رأى أبى العباس المبرد ، فان له مذهبا سديدا فى جملة الحروف التى يقولون عنها إنها مزيدة فى القرآن ، وهو أنه ليس شىء من الحروف جاء فى القرآن إلا لمعنى مفيد ، ولا يجوز أن يكون لغوا مطرحا ، ولا خاليا من الفائدة صفرا ؛ وذلك أن الزيادات والنقائص فى الكلام إنما يضطر اليها ويحمل عليها الشعر الذى هو مقيد بالأوزان والقوافى ، وينتهى الى غايات ومرام ، فاذا نقصت أجزاء كلامه قبل لحاق القافية اضطر الشاعر الى أن يزيد فى الحروف فيمد المقصور ، ويقطع الموصول ، وما أشبه ذلك . وإذا زاد كلامه ـ وقد هجم على القافية فاستوقفته عن أن يتقدمها ، وأخذت بمخنقه دون تجاوزها ـ اضطر صاحبه الى النقصان من الحروف ، فقصر الممدود ، ووصل المقطوع ، وما أشبه ذلك حتى يعتدل الميزان ، وتصح الأوزان ؛ فأما إذا كان الكلام محلول العقال ، مخلوع العذار ، ممكنا من الجرى فى مضماره ، غير محجور بينه وبين غاياته ، فان شاء صاحبه أرسل عنانه فخرج جامحا ، وإن شاء قدع لجامه فوقف جانحا ، لا يحصره أمد دون أمد ، ولا يقف به حد دون حد ـ فلا تكون الزيادات الواقعة فيه إلا عيا واستراحة ، ولغوبا وإلاحة ؛ وهذه منزلة ترفع عنها كلام الله سبحانه ، الذى هو المتعذر المعوز ، والممتنع المعجز ، وكل كلام إنما هو مصل خلف سبقه ، وقاصر عن بلوغ أدنى غاياته ؛ بل قد يرتفع عن هذه المنزلة كلام الفصحاء المتقدمين ، والبلغاء المحذَّقين ، فضلا عما هو أعلى طبقات الكلام ، وأبعد مقدورات الأنام .

وإذا كان ذلك كذلك فما معنى هذه الواو ؟ ما كدت أوجه هذا السؤال الى جائشتى حتى تذكرت ـ والذكرى شجون ـ سؤالا من هذا القبيل وجه الى أبى العباس المبرد ، وقد

قرأ قوله تعالى : « هذا بلاغ للناس ولينذروا به » سأله سائل فقال : قد علمنا أن هذه اللام لام كى فما معنى إدخال الواو عليها إن لم نقدرها مزيدة ؟ فقال له المبرد : ألست تعلم أن قوله تعالى : « هذا بلاغ » مصدر ، وقوله : « ولينذروا به » فعل موضوع فى موضع المصدر ، لأن الأفعال تدل على مصادرها ؟ فالتقدير : هذا بلاغ للناس وإنذار ؛ فبطل أن تكون الواو جاءت لغير معنى . وقد أحسن المبرد فى هذا الجواب غاية الاحسان . فما أحسن جواب فى واو الآية التى نحن بصددها ؟ قال الزمخشرى : « فان قلت : كيف موقع قوله : « ولو افتدى به » ؟ قلت : هو كلام محمول على المعنى كأنه قيل : فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبا » (١) وهذا المعنى الذى ذكره لا يتسق ونظم الكلام . والذى يقتضيه التركيب وينبغى أن يحمل عليه ، أن الله تعالى أخبر أن من اخترم كافرا لا يقبل منه ما يملأ الأرض من ذهب ، على كل حال يقصدها ، ولو فى حالة الافتداء به من العذاب . ومن المعروف فى النحو : أن لو تأتى منبهة على أن ما قبلها جاء على سبيل الاستقصاء ، وما بعدها جاء تنصيصا على الحالة التى يظن أنها لا تندرج فيما قبلها كقوله : « أعطوا السائل ولو جاء على فرس ، وردوا السائل ولو بظلف محرق » كأن هذه الأشياء مما كان لا ينبغى أن يؤتى بها ، لأن كون السائل على فرس يشعر بثرائه ، فلا يناسب أن يعطى ؛ وكذلك الظلف المحرق لا غنى فيه . فكان يناسب أن يقبل منه ملء الأرض ذهبا لكنه لا يقبل ؛ ونظيره قوله تعالى : « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » لأنهم نفوا أن يصدقهم على كل حال حتى فى حالة صدقهم ، وهى الحالة التى ينبغى أن يصدقوا فيها ؛ ولو هنا لتعميم النفى والتأكيد له ، فكأن الله سبحانه لما قال : « فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا » عمم وجوه القبول بالنفى ، ثم فصل سبحانه لزيادة الإيضاح والبيان . . . ولو لم ترد هذه الواو لم يكن النفى عاما لوجوه القبول ، وكان القبول كأنه مخصوص بوجوه الفدية دون غيرها من وجوه القربة . . . وهكذا تتكشف لك دقائق الإعجاز فى القرآن إذا أعملت الفكر ، وأرهفت الخاطر ، ويتبين لك جليا أن « الحرف الواحد من القرآن معجز فى موضعه لأنه يمسك الكلمة التى هو فيها ، ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة ، ولأنه ما من حرف إلا ومعه رأى يسنح فى البلاغة من جهة نظمه ، أو دلالته أو وجه اختياره بحيث يستحيل البتة أن يكون فيه موضع قلق ، أو حرف نافر ، أو جهة غير محكمة ، أو شىء مما تنفذ فى نقده الصنعة الانسانية من أى باب من أبواب الكلام إن وسعها منه باب » . وهذا هو السر فى إعجاز عامته ، والدليل الناصع على أنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، خلق الانسان علمه البيان ؟

السيد أحمد صقر

(١) الكشاف ...

بابُ الأسئلةِ والفتاوى

بين لجنة الفتوى ووزارة الشئون الاجتماعية

حضرة صاحب المعالى وزير الشئون الاجتماعية

السلام عليكم ورحمة الله :

وبعد ، فقد ورد الى لجنة الفتوى بالأزهر استفتاء من جماعة من المسلمين فيما نشر بمجلة الشئون الاجتماعية فى أعدادها ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ من آراء يرونها تمس المبادئ الاسلامية ، وقد ضربوا لذلك أمثلة كثيرة ، وطلبوا بيان حكم الله فى هـذه الآراء ، وفى نشرها فى مجلة رسمية على جمهور يدين بالاسلام ، وفى دولة دينها الرسمى الاسلام .

وقد رجعت لجنة الفتوى الى المقالات التى تضمنت هذه الآراء فى الأعداد المشار إليها ، فتبين لها أن بعض الكاتبين ومحررى المجلة قد تجمح بهم أقلامهم فتصور الآراء والأفكار صورا تحمل فى طياتها بعضا من الغمز والتعريض ، وتهجم على مقامات سامية يحترمها العالم كله ، ويؤمن بتعظيمها كل ذى دين سماوى ، كما أنها تحاول أن تخلع على بعض المبادئ الاسلامية ثوب الرجعية البالى وأنها لا تنهض بالإصلاح الاجتماعى المنشود ، ثم تنوه بشأن نظم أخرى لا يقرها الدين ولا يعرفها المسلمون . وإلى معاليكم أمثلة من ذلك :

١ — فى العدد الرابع من المجلة تحت عنوان (الطفولة المشردة) يقول الكاتب : « أليست حضارة العالم تقوم الآن على تعاليم موسى وعيسى ومحمد ؟ هـل كان أحد هؤلاء الثلاثة شيئا يذكر عندما كان فى مرحلة الطفولة ؟ ألم يكن أولهم لقيطا على الوصف الذى ورد فى التوراة ؟ ألم يكن ثانيهم فى حكم اللقيط ينتسب الى نجار ؟! » اهـ

ولا يخفى على معاليكم أن كلمة « لقيط » صارت بحكم العرف العام الحاضر من الألفاظ التى تنبو عنها الأسماع فى البيئات المتوسطة ، وتتحاشاها ألسنة كثير من العامة ، فضلا عن البيئات الراقية المثقفة .

وأن فى التعبير عن سيدنا عيسى روح الله وكلمته بأنه ينتسب الى نجار تعريضا شنيعا بسيدنا عيسى الرسول وأمه مريم البتول عليهما السلام ، وأن حسن النية فى استعمال هـذه الكلمات الجارحة لا يقتلع من نفس القارئ مرارة الألم الذى يساوره حينما يقع نظره عليها .

إن قداسة الأنبياء شأن من الشئون التى تكفلها الأديان جميعا ، والتى يغار عليها جميع المتدينين ؛ وإنها لأجل وأعظم من أن تكون مضرب المثل للطفولة المشردة فى عصرنا الحاضر .

٢ — فى العدد الخامس تحت عنوان (الأسرة الأوربية والدعائم التى تقوم عليها) تنويه بشأن النظم الأوربية فى الطلاق والزواج ، إذ يقول الكاتب : « ففى بعض الأمم الأوربية وخاصة التى تدين بالمذهب الكاثوليكى يكاد الطلاق يكون من المستحيلات . . . . ثم يقول : « ولكن هذه القوانين ليست كل ماعمدت اليه الشعوب الراقية من وسائل الحماية ، بل هناك أنواع أخرى ، منها أن الأوربى على وجه عام متعصب بطبعه وآدابه أشد التعصب للزواج بواحدة ؛ وتعدد الزوجات جناية يعاقب عليها مرتكبها بالسجن سنتين أو أكثر » اه .

ومما لا خفاء فيه أن الدعوة الى إصلاح الأسرة بهذا الأسلوب تتضمن الغض من المبادىء الاسلامية التى تشرع الطلاق لأسبابه المعقولة ، وتبيح تعدد الزوجات لمن تطمئن نفسه الى العدل والقيام بالحقوق ، كما تتضمن التلويح بأن هذه المبادىء تتنافى ورقى الأمم وتقدمها .

وإذا كان المسلمون يقرءون فى مجلة تصدرها حكومة إسلامية تصوير أحكام دينهم بهذه الصورة ، فان ثقتهم فى هذه المجلة لتضعف وتتلاشى ، وإن الشك ليساورهم فى القائمين على أمرها .

٣ — فى العددين الرابع والخامس أيضا دعوة شديدة الى أنه يجب أن تطول مدة الخطبة قبل الزواج ، وأن يترافق الخطيبان ويتعارفا حتى يتاح لكل منهما أسباب الوقوف على فضائل الآخر وعلى عيوبه .

ولا شك أن الدعوة الى هذا المبدأ إمعان فى تسهيل ذرائع الفساد ، وأن حوادث الفتك بالأعراض التى تقع فى ظل تعارف الخطيبين لأكثر من أن تحصى ، وأن فى بعضها ما يكفى لهدم هذه الدعوة التى يراد حمل المسلمين عليها .

إن الاسلام أباح للرجل أن يرى خطيبته ، ولكنه حرم تحريما باتا أن يختلى بها قبل العقد ، أو يعاشرها معاشرة الرفقة والتعارف على الوجه الذى تدعو اليه المجلة ، وتعتبره من وسائل تدعيم الأسرة والمحافظة عليها .

وبعد ، أفلا يرى معالى الوزير أن نشر مثل هذه المبادىء والآراء وترويجها بين المسلمين فى مجلة حكومية ، يدعو الشبان وأنصاف المتعلمين الى التمسك بها وازدراء غيرها ؟ أفلا يرى معاليه أن نشر المبادىء الاوربية فى مجلة الشئون الاجتماعية لا يمكن أن يعتبره الرأى الاسلامى مجرد عرض لصور الحياة الاجتماعية عند الأوربيين ؟ !

أفلا يكون الرأى العام معذورا إذا هو اعتقد فى القائمين على تحرير المجلة أنهم يريدون تقريب المبادىء الأوربية الى المجتمع الاسلامى ، ودعوته ضمنا الى اعتناقها والعمل بمقتضاها ؟

إن لجنة الفتوى لا يخامرها أدنى شك فى أن معالى الوزير يقدر هـذه المسائل قدرها ، ويعطيها المكانة اللائقة بها من الخطورة ، فيعمل على تلافيها ، وتطهير المجلة منها ، وتوجيهها الوجهة الصالحة . والله الموفق .

والسلام عليكم ورحمة الله . رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

رد وزارة الشؤون الاجتماعية

حضرة صاحب الفضيلة رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف .

السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد ، فقد تشرفت بتسلم كتاب فضيلتكم المتضمن رأيكم فى فقرات وردت بمقالين نشرتهما مجلة الشؤون الاجتماعية خلال العام الماضى . وإنه ليسرنى بداءة ذى بدء أن أرى فضيلتكم تقررون أن حسن النية متوافر فى الأقلام التى جرت بهـذه الفقرات . وعلى ذلك لا يبقى إلا أن يكون التعبير قد خان تلك الأقلام ، فجاءت عبارتها تحتمل اللبس والتخريج .

ولقد راجعت المقالتين اللتين أشرتم اليهما فوجدت الأولى لحضرة الأستاذ وهيب بك دوس المحامى وعضو مجلس الشيوخ ، وقد عرض فيها لحال الطفولة المهملة فى مصر ، وأخـذ يحث على وجوب العناية بتعليمها وتهـذيبها بغية إنضاج ما قـد يـكون كامنا فى بعضها من الذكاء والنبوغ ، وضرب لذلك مثلا ببعض عظماء مصر فى العهد الماضى فقال : إنهم لاينتمون الى أسر كبيرة معروفة ، وإنما انتزعوا من أوساط رقيقة الحال ، فعلموا وهذبوا ، ثم نجحوا فى وضع أساس نهضة مصر الحاضرة ؛ وترقى من ذلك الى ضرب المثل بالأنبياء : موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ؛ وذكر فى مقام تمجيد عبقريتهم والإشادة بآثارهم أن حضارة الانسانية كلها على مدى العصور إنما قامت على تعاليمهم مع أن أحدهم كان لقيطاً على حد رواية التوراة ، وأن الثانى مطعون فى نسبه فى رأى اليهود ، وأن الثالث كان يتيما على حد قول القرآن الكريم .

هـذا هو سياق الكلام ومفهومه ومرماه . فاذا كان التعبير عنه لم تراع فيه بعض الاعتبارات فهو على كل حال تعبير رجل مسئول لا يمكن أن يشك فى حسن قصده وسلامة نيته ، ولو كانت إدارة المجـلة تتوقع أن كلامه سيفسر بمعان غـير التى يريدها لاستشارته فى إدخال بعض التعديل على ألفاظه .

أما ما جاء فى الفصل الخاص بالأسرة الأوربية والدعائم التى تقوم عليها فلا يخرج عن كونه

إن لجنة الفتوى لا يخامرها أدنى شك فى أن معالى الوزير يقدر هـذه المسائل قدرها ، ويعطيها المكانة اللائقة بها من الخطورة ، فيعمل على تلافيها ، وتطهير المجلة منها ، وتوجيهها الوجهة الصالحة . والله الموفق .

والسلام عليكم ورحمة الله . رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

رد وزارة الشؤون الاجتماعية

حضرة صاحب الفضيلة رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف .

السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد ، فقد تشرفت بتسلم كتاب فضيلتكم المتضمن رأيكم فى فقرات وردت بمقالين نشرتهما مجلة الشؤون الاجتماعية خلال العام الماضى . وإنه ليسرنى بداءة ذى بدء أن أرى فضيلتكم تقررون أن حسن النية متوافر فى الأقلام التى جرت بهـذه الفقرات . وعلى ذلك لا يبقى إلا أن يكون التعبير قد خان تلك الأقلام ، فجاءت عبارتها تحتمل اللبس والتخريج .

ولقد راجعت المقالتين اللتين أشرتم اليهما فوجدت الأولى لحضرة الأستاذ وهيب بك دوس المحامى وعضو مجلس الشيوخ ، وقد عرض فيها لحال الطفولة المهملة فى مصر ، وأخـذ يحث على وجوب العناية بتعليمها وتهـذيبها بغية إنضاج ما قـد يـكون كامنا فى بعضها من الذكاء والنبوغ ، وضرب لذلك مثلا بعض عظماء مصر فى العهد الماضى فقال : إنهم لا ينتمون الى أسر كبيرة معروفة ، وإنما انتزعوا من أوساط رقيقة الحال ، فعلموا وهذبوا ، ثم نجحوا فى وضع أساس نهضة مصر الحاضرة ؛ وترقى من ذلك الى ضرب المثل بالأنبياء : موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ؛ وذكر فى مقام تمجيد عبقريتهم والإشادة بآثارهم أن حضارة الانسانية كلها على مدى العصور إنما قامت على تعاليمهم مع أن أحدهم كان لقيطاً على حد رواية التوراة ، وأن الثانى مطعون فى نسبه فى رأى اليهود ، وأن الثالث كان يتيما على حد قول القرآن الـكريم .

هـذا هو سياق الـكلام ومفهومه ومرماه . فاذا كان التعبير عنه لم تراع فيه بعض الاعتبارات فهو على كل حال تعبير رجل مسئول لا يمكن أن يشك فى حسن قصده وسلامة نيته ، ولو كانت إدارة المجـلة تتوقع أن كلامه سيفسر بمعان غـير التى يريدها لاستشارته فى إدخال بعض التعديل على ألفاظه .

أما ما جاء فى الفصل الخاص بالأسرة الاوربية والدعائم التى تقوم عليها فلا يخرج عن كونه

عرضا للنظم التى تقوم عليها الأسرة فى الغرب ، ولا يقصد منها سوى تعرف هذه النظم ، لنوازن بين صرامتها فى مسألة الطلاق وتعدد الزوجات ، وبين ما تفشى عندنا من الفوضى فى هذه المسائل ، نتيجة لانحرافنا عن أصول الاسلام وتعاليمه الصحيحة ، عسى أن تفضى هذه الموازنة الى كبح جماح بعض النفوس ، أو التنبيه لوضع قيود ترد نظام الأسرة الى أصول الدين . ولا شك أنه كان بعيداً جداً عن تفكير كاتب المقال أن يحاول الغض من سلامة المبادىء الاسلامية التى أباحت التعدد والطلاق لأسبابهما المعقولة ، بدليل ما تفيض به أبحاث هذا الكاتب نفسه فى أعداد المجلة من الدفاع عن تلك المبادىء ، مع المطالبة بالحرص على توخى حكمة الشارع فى وضعها . ولا شك أيضا فى أنه أول الآسفين على أن يحمل كلامه محملا لم يقصده ولم يخطر له ببال .

وأما ما يتعلق بإطالة مدة الخطبة قبل الزواج فليس معناه أن يباح للخطيبين اختلاط مطلق من كل قيد قد يستغل فيه ضعف الطبائع والغرائز ، وإنما أراد به الكاتب أن يفسح الوقت للشابين ، فى حدود مشروعة ، ليتعرف كل منهما حقيقة الآخر قبل أن يرتبط به ارتباطا يبقى مدى الحياة ، وأن يفسح الوقت أيضا للأسرتين حتى يتعرف كل منهما من دخائل الآخر ما لا تسمح المصاهرة المرتجلة أو السريعة بتعرفه .

وبعد ، فانى أستطيع أن أطمئن فضيلتكم على أن مجلة الشؤون الاجتماعية قد عهد بها الى موظفين من أحرص الناس على دينهم وأخلاقهم ، وأن هؤلاء الموظفين خاضعون لرقابة يقظة لا تتسامح ولا تتهاون ، وهى كفيلة بأن تسير المجلة فى الطريق المستقيم ، وبأن تحل ملاحظاتكم محل الاعتبار .

وفى الختام أرجو من فضيلتكم أن تعتبروا المسألة منتهية عند هذا الحد ، وأن تتقبلوا وافر تحيتى واحترامى ؟

وزير الشؤون الاجتماعية

محمد عبد الجليل

تعليق اللجنة

وقد اطلعت لجنة الفتوى على خطاب معالى الوزير وطلبت إلينا نشر ما يأتى :

إن لجنة الفتوى يسرها أن حضرة صاحب المعالى الوزير قد سجل فى خطابه « أن كاتبى المقالات « موضوع الاستفتاء » قد خانتهم أقلامهم فجاءت عباراتهم تحتمل اللبس والتخريج » .

ونحن لا نشك أن معاليه يوافقنا على أن الأمر يحتاج الى شدة اليقظة والحيطة حتى لاتخون الأقلام أصحابها ، وخاصة فيما يتعلق بقداسة الأنبياء والمرسلين ، موضع التجلة والاحترام عند جميع الأديان .

ولا نشك أيضا أن معاليه يرى أن مما زلّ به القلم فى هذه المقالات أن تتخذ الأنبياء الثلاثة مضرب المثل للطفولة المشردة ، وأن يقال عن سيدنا عيسى عليه السلام — تأييدا لذلك — « إنه ينتسب الى نجار » . فهذا تعبير بشع ، وطعن صريح من الكاتب لا يقره عليه أحد ، ولا يحتاج معه إلا أن تتوقع المجلة أولا تتوقع تفسيره بمعنى غير الذى يدل عليه .

وقد كان يسر لجنة الفتوى ، كما يسر كل حريص على صالح المجتمع ، أن تنشر وزارة الشئون الاجتماعية فتوى اللجنة بنصها الكامل ، وألا تختزلها هذا الاختزال الذى قد يعتبر فى عرف الناس محاولة للتخلص ؛ فالحق أسمى من أن يخضع لاعتبار ما .

وبعد ، فقد اطمأنت لجنة الفتوى الى ما أكده حضرة صاحب المعالى الوزير من أن موظفى المجلة خاضعون لرقابة يقظة لا تتسامح ولا تتهاون ، وأن تلك الرقابة كفيلة بأن تسيّر المجلة فى الطريق المستقيم ، وأن تحل ملاحظة لجنة الفتوى محل الاعتبار ؛ فان الاصلاح الذى تنشده لجنة الفتوى وتنشده معها وزارة الشئون الاجتماعية ليقضى بهذا التضامن ، وبالرجوع الى الحق والاعتداد به ، والعمل على إقراره .

ومن هنا تستطيع لجنة الفتوى أن تعتبر المسألة منتهية . والله يوفقنا جميعا الى ما فيه خير الدين والوطن ؟

رئيس لجنة الفتوى بالأزهر

محمد عبد اللطيف الفحام

حجاب المرأة

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

أرجو التفضل ببيان ما اعتمده وصححه فقهاء الاسلام من الحكم الشرعى لوضع الحجاب وستر وجوه النساء فى الطرقات أمام الرجال الأجانب ، مع بيان حكمة المشروعية ، وتوضيح معنى قوله سبحانه وتعالى : « يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدْنِين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يُعرَفْن فلا يُؤذَين ، وكان الله غفورا رحيما » .

يافا — الأمير عبد القادر الشهابى

الجواب :

قال الله تعالى فى سورة النور : « وقل للمؤمنات يَغضُضْن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن » : تضمنت هذه الآية الكريمة الأدب الذى يجب أن تكون عليه المرأة بالنسبة الى الرجال الأجانب ؛ واتصلت بالآية فى ذلك أحاديث صحيحة فى البخارى ومسلم وغيرهما .

وقد اختلف الفقهاء فيما يباح للمرأة كشفه من أعضائها أمام الرجال الأجانب ، وما لا يباح لها كشفه ، تبعا لاختلافهم فى فهم هذه الآية وتلك الأحاديث :

فالإمام أحمد بن حنبل والامام الشافعى ، فى أحد قوليه ، يرى كل منهما أنه لا يباح المرأة المسلمة أن تكشف أى جزء من أعضائها أمام الرجال الأجانب إلا إذا دعت الى ذلك حاجة ، كما فى حالة العلاج ، والشهادة فى المعاملة فى البيع والشراء ، والخطبة للزواج . ويرى كل منهما أن المراد بقوله تعالى : « إلا ما ظهر منها » بعد قوله : « ولا يبدين زينتهن » استثناء ما ينكشف من غير تعمد من المرأة : كأن تكشف الريح عن صدرها أو ساقيها ، فانه لا إثم عليها فى ذلك ولا حرج .

ومذهب الحنفية ، والرأى الثانى للشافعى ، والقول المفتى به عند المالكية : أنه يباح للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها فى الطرقات وأمام الرجال الأجانب . ويرى أصحاب هذا الرأى أن المراد بالآية نهى النساء عن إبداء شىء من أعضائهن إلا الأعضاء الظاهرة بعادتها ، وهى الوجه والكفان .

وقد قيدوا هذه الإباحة بحالة أمن الفتنة . أما إذا كان كشف الوجه واليدين يثير الفتنة ويغرى بالمرأة من لاخلاق له فانه يجب عليها سترهما كما تستر بقية أعضائها . فانه مما لا شك فيه

أن من مقاصد الاسلام العمل على سد الذرائع ، وقطع دابر الفتن ، وصيانة الآداب ، وحفظ الأعراض .

هذه هى مذاهب الفقهاء فيما يحل للمسلمة أن تكشفه من أعضائها أمام الرجال الأجانب ، وما لا يحل . وقد بنيت كما سلف على اختلافهم فى فهم المراد من قوله تعالى فى آية النور : « إلا ما ظهر منها »

الخلاصة :

والخلاصة : أن بعض الأئمة لا يبيح للمرأة أن تكشف شيئا من جسمها أمام الرجال الأجانب من غير حاجة ، وأن جمهورهم يبيح لها كشف الوجه واليدين أمام الرجال بشرط أن لا تخاف الفتنة ، فإن خيفت الفتنة فلا يسوغ لها أن تكشف شيئا من جسمها لا الوجه ولا غيره .

ولجنة الفتوى ترى — تمشيا مع القاعدتين الاسلاميتين العظيمتين : « يسر الدين وسماحته ، وسد ذرائع الفساد » — ترجيح الرأى القائل بأن وجه المرأة وكفيها ليست من العورة ، فلا جناح عليها أن تكشف شيئا منها أمام الرجال الأجانب ، دفعا للحرج والمشقة فى معاملاتها العامة والخاصة ، وأنه إذا خيفت الفتنة يجب عليها ستر جميع بدنها سدا لذريعة الفساد .

واللجنة تقرر فى الوقت نفسه أن كشف الوجه واليدين مزينة بالأصباغ المعروفة نوع من التبرج الذى يمقته الشرع ويشدد فى النكير عليه ، وأن الكشف المباح إنما هو للوجه واليدين على طبيعتها التى خلقها الله عليها ، خالية من أصباغ وألوان ؛ وهى تناشد المسلمين حرصاً على سعادتهم أن يهيمنوا بهذا الأدب الاسلامى الكريم على نسائهم وفتياتهم ، ويشعروهن بأن مخالفة هذا الأدب توجب غضب الله تعالى وسخطه ، فضلا عن أنها تدهور كيان الأسرة الخلقى . وتهيب اللجنة بهم أن يجعلوا نصب أعينهم دائما قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً وَقودها الناس والحجارة » .

أما قوله تعالى فى سورة الأحزاب : « يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين ... الآية » فقد جاء ضمن آيات سيقت لمعالجة حالة خاصة نشأت بين المنافقين والمؤمنين ، وهى أن المنافقين كانوا يتصدون للمسلمين بكثير من أنواع الإيذاء ، تارة فى أشخاص المسلمين ، وتارة فى أشخاص المسلمات ، بما ألفوا أن يقابلوا به بغايا الجاهلية من فحش القول وبذىء الكلام ، فنزل قوله تعالى : « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا . والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا . يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفورا رحيما . لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض

والمُرْجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا . ملعونين ، أينما ثقفوا أُخذوا وقُتّلوا تقتيلا » .

فسجلت هذه الآيات الكريمة ، حسماً لتلك الحالة وردعا لهؤلاء المنافقين ، أنواعا من العلاج يرجع بعضها الى تهديد المنافقين ووعيدهم بسوء عاقبتهم الأخروية والدنيوية إذا استمروا على إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، ويرجع بعضها الى بيان ما يتحصن به المؤمنات من تعرض المنافقين لإيذائهن ، وكان من هذا ما تضمنته آية « يأيها النبي قل لأزواجك . . . الخ » . فقد أمر فيها نساء المؤمنين أن يتخذن فى زيهن ما يميزهن ويجعلهن معروفات لمن يحاول التصدى لهن بالإيذاء تحت ستار الجهل أو التجاهل بهن . يشير الى هذا قوله تعالى فى بيان حكمة ذلك الأمر : « ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » .

ولا شك أن إدناء الجلباب على نساء المؤمنات بحيث يغطى جميع أجسامهن ، يميزهن عن غيرهن ، وهو مع ذلك أنسب بالتصون والمبالغة فى مظهر العفاف المطلوب منهن ، وأبعد بهن عن معانى الريبة ومواقع الإيذاء .

هذا هو ما تتجه اليه الآية الكريمة ، وهو المراد منها . ويؤخذ من دلالة هذا العلاج أن المرأة المسلمة يجب عليها بوجه عام وفى جميع الأوقات والشؤون أن تبتعد عن مواطن الريب ، وأن تسمو بنفسها عن مساقط الإيذاء ، صونا لدينها ، وحفظا لكرامتها وكرامة ذويها ؟

أجر المأذون

وجاء الى اللجنة أيضا :

ما الحكم فى الأجرة التى يأخذها مأذون عقود الأنكحة : هل هى حلال أو حرام أو مكروهة ؟ لأن الرواتب التى تصرف على أئمة المساجد ومؤذنيها وخدمتها من هذه الأجور ، فإن ألغيت أهملت المساجد وتعطل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حيث إنه لا وقف هناك يقوم بكفاية المذكورين ، إلا أن يكونوا عالة على الناس ؟

محمد عبد الرحمن الخطيب
إمام الجامع العمرى بالكرك

الجواب :

أخذ الأجرة على تسجيل عقود الزواج حلال ولا شىء فيه . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

تاريخ الازهر

بواعث التفكير فى وضعه وإذاعته

هذا بحث عرضت لموضوعه منذ خمس سنين ، ثم صرفتنى عنه شواغل كثر .

وأشهد لقد كان الحافز الذى أهاب بى أن أعرض لموضوع هذا البحث ، مستمدا وجوده من لحظات سعيدة أمضيتها مع صحفى من « كوبنهاج » عاصمة الدانمرك .

كان هذا الصحفى يؤدى لصحيفته جولة ميدانها بلاد الشرق ، وقد شخص الى مصر ، وتعرف فيها الى قادتها ، وتحدث إليهم وأدرك عنهم جمهرة التيارات الفكرية التى تتجاذب مصر الإسلامية بعد أن استقامت لها على العالم الإسلامى زعامة يقول بها كل موطن يدين بالاسلام أهله . . .

وقال لى الصحفى الدنمركى : لقد دخلت البيت من بابه !

فقلت له : كأنك مرنت قبل الآن على أن تدخل البيوت من نوافذها . . !

فاستطرد وهو يضحك : كلا ، فما الى هذا الذى ترمى إليه أقصد ، وإنما أقصد من ذلك الى القول بأنى وقد قصرت بحثى فى مصر على الدوافع التى مهدت لها زعامة العالم الاسلامى رأيت الخير كل الخير فى أن أدرس هذه العوامل فى الجامع الأزهر ، لأنها تجتمع فيه وتصدر عنه ، ومن هنا كان حديثى مع الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى أنفع حديث صحفى ظفرت به من الشرق . . !

ثم قال : إننا نعرف الأزهر فى « كوبنهاج » ، ونعرف أن المسلمين فى سبيلهم الى الاحتفال بعيده الألفى . . .

قلت : وهذا ما لا يجهله أى أحد فى جنبات الأرض . . .

فمضى الصحفى الكوبنهاجى يقول : إنى أعرف ذلك وأطمئن الى أنه الحق ، ولكنى أرجو أن تصنع معى معروفا .

قلت : وإنه ليسعدنى حقا أن أوفق فى ذلك الى ما تريد .

فقال : أريد أن ترشدنى الى الكتب التى يدرس الأزهريون فيها تاريخ الأزهر من باكورة عهده بالوجود الى اليوم ، فانها على التحقيق لن تخلو من متاع يطيب لى أن أكون أول من ينقله الى « البلاد الواطئة » . فقد نقلت إليها فصولا ممتعة عن كتاب قيم يتحدث عن جامعة « براج » وهى الجامعة التى أحسبها تؤاخى الجامع الأزهر فى طول العمر وامتداد صفحة الوجود .

قلت : ولكنك لم تظهرنى حتى الآن على الينبوع الذى صدرت إليه وانصرفت عنه وأنت على معرفة بأن الجامع الأزهر معهد يدرس فيه الطلاب ، وأنه يتهيأ لاستقبال عيده الألفى .

فقال : أما هذا « الينبوع » فانه لا يزيد عن ذلك الفصل القصير الذى كتبه « فولرز » فى دائرة المعارف الإسلامية « الانجليزية » ، وعن فصول قصار أخرى كتبتها أقلام أدركت الآن أنها لم تساير الجادة فى طائفة غير قليلة مما عرضت له من المسائل الموصولة بالأزهر من ناحية تاريخه ، ومن ناحية المنهاج الثقافى الذى ينهض بأعباء إشاعته وجمع كلمة المسلمين من حوله ، ولقد صححت غير قليل من هذه الأخطاء بعد أن استمعت الى حديث الأستاذ الأكبر الى .

وافترقنا قبل أن أقول له إن القدر الذى يعرفه من تاريخ الأزهر عن طريق الفصل القصير الذى كتبه « فولرز » قد لا يعرف مثله الأزهريون الذين يحصلون العلم فى أقدم جامعة إسلامية فى هذا الوجود .

كان هـذا الحديث مع الصحفى الكوبنهاجى إذن هو الحافز الذى أهاب بى أن أجعل من « تاريخ الأزهر » مشغلة الفراغ ، ومسألة الساعة التى تخلو من مسائل .

والحق أقول : إنه ما من أحد يستطيع وحده أن يعرض لتحقيق التاريخ الأزهرى خلال ألف عام دون أن يلتزمه العناء ، أفدح العناء ، ويستحوذ عليه الضيق ، كل الضيق ، من هذه الأخاديد التى تعترض طريق التاريخ الأزهرى فى هذه الحقبة التى تجمع الى طول الأمد وجوها كثيرا من النقائض والأضداد ، وألوانا كثيرا من التيارات التى تختلف بين السياسة من ناحية تفاعل السلطات التى تعاقبت على مصر تفاعلا نوّع من ضروب النظر الى الأزهر والى ما يلقى من منبره أو على أديمه من بحوث .

ولكن العناء والضيق اللذين يعرض لهما الباحث الواحد ، قد لا يتعرض لهما من يبحث التاريخ الأزهرى فى جمهرة من الذين يؤاخونه البحث ويتوفرون عليه معه ، فلا خلاف على أن إنتاج الجماعة فى هذه الناحية يكون أقرب الى التوفيق ، وأعمر بالخصوبة ، وأمعن فى السداد .

ولن يكون التعرض لهـذا العناء المحمودة مغبته ، شرا من الألم الذى يلمسه الأزهرى بيديه حين يسأله السائلون : ماذا يعرف من تاريخ الأزهر ، فلا يرى أنه يعرف من تاريخه إلا أنه جامع أنشأه الفاطميون فى مصر ليروجوا من منبره لمذهبهم فى الدين ، وأنه يتعهد طلابه بطائفة من فنون المعرفة ، ويجرى عليهم أرزاقا حبسها على أهله بعض الملوك وبعض السادة ، وبعض السيدات . . . . !

ولن يكون الجهد الذى ينفق فى سبيل تحقيق تاريخ الأزهر وإخراجه ليتدارسه طلابه ، جهدا تنطوى نتائجه على أية ظاهرة من العبث أو مضيعة الوقت والمال ، لما يعرف الأزهر

فى مصر ، وفى غيرها من بلاد الله ، على أنه مدرسة ينصرف اليها الطلاب ، ليصدروا عنها علماء يقولون فى الفقه والنحو والتوحيد ، وما الى ذلك من فنون العلم التى يتألف منها منهاج الدراسة الأزهرية وحسب ، وإنما يعرف الأزهر على أنه الموطن الذى تتلاقى فيه أمزجة العالم الاسلامى ، والذى تنصرف منه الدعاوة لرأى فاذا هو الرأى الذائع الشائع ، أو تنصرف منه الدعاوة ضد فكرة فاذا هى الفكرة البائدة الخامدة .

وكيف كان ذلك ؟

كان ذلك ، لأنه ما من مسألة شغلت أذهان المسلمين فى دينهم إلا ومستها ألسنة الأزهريين بحديث جرى من مقاعد الشيوخ التى كانت مستقرة على حصير الأزهر من أقدم الحقب ، فالمذاهب الدينية كلها ، حتى تلك المذاهب التى اجتمعت الكلمة على رفضها ، قد قال فيها الشيوخ القدامى والمحدثون كلاما من حق الأزهريين أن يعرفوا تفصيل أمره حتى يعلموا لأى سبب توافدت هذه المسائل على الأزهر لتبحث فيه ، ولأى سبب كان استبعاد بعضها عن حوزته وكان استبقاء بعضها الآخر مستقرا فى مقصورته .

وكان ذلك ، لأنه ما من أحد أمسك بيده مقاليد الأمر فى مصر إلا وأبقى فى الأزهر أثرا يدل عليه ويفصح عنه ويسجل حقيقة مزاجه ، سواء أكان هذا الأثر تعلية لمكانة الأزهر وتوسيعا لأرزاق أهله ، أم كان هو التدلى بهذه المكانة الى القاع ، والتضييق على الأزهريين تضييقا يصرفهم بعض الشىء عن التزام التفرغ للتحصيل . . .

وكان ذلك ، لأنه ما من أمة يعرف أهلها الاسلام إلا وكان منهم من عرف الأزهر وأخذ عن شيوخه ، ونقل الى مواطنيه ما تهيأ له أن يقتبسه من علومه ؛ فمن الخير إذن أن يعرف الأزهريون ، وفيهم الآن بضع مئات من الطلاب الأجانب الذين لا تنصرف منهم فئة إلا لتستقر فى مكانها فئة أخرى . . . من الخير حقا أن يعرفوا العهد الذى استروح الأزهر فيه أنفاس الفوج الأول من طلابه الغرباء ، وأن يلموا بالبواعث التى دفعت بالبعوث تبعث اليه من كل جانب .

وكان ذلك ، لأنه ما من مشكلة تعرضت لها مصر ، وكانت مشكلة فى الدين أو الأدب أو السياسة أو نظام الحكم ، إلا وكان للأزهر فيها رأى ، وكان له فى موضوعها توجيه ؛ فمن الخير كذلك أن يتعرف الأزهريون إلى ما ربحه الأزهر من هذه المشكلات والى ما خسر منها ، لأنهم سيدركون من ذلك طائفة من حقائق الحياة المصرية التى لا يستطيعون إدراكها إلا فى ضوء معرفتهم بهذه الجوانب من تاريخ معهدهم ، ثم هم يفيدون منها ، على هذا كله ، معرفة صادقة بمراحل الحياة الفكرية والسياسية والدينية فى مصر ، لأن الذى يعرف تاريخ الأزهر من هذه الناحية ، ويعرف قدرا من تأثيره فى الحياة المصرية ، ومن تأثير الألوان التى سادت الحياة المصرية فيه ، إنما يكون فى ذلك كله قد عرف التاريخ المصرى فى أوضح حقائقه وأحفل صوره بالدلالة على طابعه الأصيل . . .

ثم كان ذلك ، لأنه ما من عمود من هـذه العمد القائمة فى الجامع الأزهر إلا وافترنت بأسماء طائفة من جلة الأشياخ الذين أحسنوا فيما توفروا على تأديته من رأى قالوا به فى الدين واللغة وما يتصل بهما من مسائل العلم وفنونه ، حتى لقد كان « شيخ العمود » أكبر الأمنيات التى تنطوى عليها أضالع الأزهـرى وهو مقبل على الأزهر ليستمع فيه الى شيوخه متلهفا الى اليوم الذى يستطيع فيه أن يظفر بمثل مقعدهم الى جانب واحد من هذه العمد التى اشتهرت بأسماء الشيوخ الكفاة الذين استندوا إليها وهم يرسلون على طلابهم خير ما يقال فى فنون العلم ؛ فمن الخير إذن أن يعرف الأزهريون بما يستطاع التفصيل فيه من تاريخ هؤلاء الأعلام ، وأن يجمعوا الى ألبابهم طائفة محققة منسقة من ألوان التراث الثقافى الذى أنتجوه .

وكان ذلك ، لأنه ما من ناحية يدين أهلها بالاسلام فى هذه الدنيا إلا وبسط الأزهر عليها ظله بواسطة البعوث التى استقبلها من أهل هذه المواطن ، وفى الرسائل التى تعيها محفوظاته ، فى العهد الأخير ؛ فمن الخير إذن أن يعرف الأزهريون هـذه الناحية حتى تتوفر لهم الدراية الكاملة بالجانب الاجتماعى من حياة معهدهم ، لأنها تضم إليها ألوانا تؤلف الصورة التى يطالع العالم فيها وجه الزعامة الدينية على العالم الإسلامى .

وقد اقتعد أريكة الرياسة على الأزهر شيوخ فيهم من ارتفع بمكانة العلماء الى الأوج ؛ فمن فائدة الأزهريين أن يلموا بالخصائص التى أكسبت أولئك الشيوخ منزلة الذين كانوا يتمتعون بالكلمة العليا ، لا فى البيئة الأزهرية وحدها ، وإنما كانوا يتمتعون بالكلمة العليا فى البيئة الحاكمة أيضا .

ومن فائدة الأزهريين أن يعرفوا البواعث التى حفزت أكثر الذين ولوا الأمر فى مصر أن يكونوا على عناية ملحوظة بالأزهر ، ففى هـذه البواعث ألوان من التوجيهات يستطيع الأزهرى المعاصر استغلالها لنفسه لتكون حياته العامة نفعا محضا ، وخيرا خالصا .

وقد اكتملت للأزهر سلسلة طويلة من الانقلابات ينبغى على طلابه أن يكونوا على دراية بها ليعلموا منها جمهرة المراحل التى اجتازها حتى انتهى الى هذا العهد الذى صار اليوم اليه ، وليعرفوا الجهود التى أنفقها فى سبيل المحافظة على التراث الدينى الذى ائتمن عليه .

كل هذا ولم أقل لك : إنه فى مقدور طائفة من كفاة العلماء ومعهم طائفة من المؤرخين إذا تصدوا لتحقيق تاريخ الأزهر أن يواتوا أطماعنا فى إخراج هذا التاريخ الى أكثر مما نأمل فيه .

ولو أتيح لتاريخ الأزهر أن يشهد الضوء بين دفتى كتاب يضم اليه مراحل هذا التاريخ كله ، لكان ذلك أنفس ثروة ثقافية يمد بها هذا الجيل ما يأتى بعده من الأجيال .

وعسى ألا يذهب هذا الصوت فى الدعاوة لتلك الفكرة سدى !

علي عامر

من وحى الشريعة الخالدة

مما لا خلاف فيـه أن الأوضاع السماوية بما حملته فى أطوائها من سمو المبادئ وراجح الآراء ونبيل المقاصد ، كانت ولا تزال مرد الـكائنات كلها فيما يصدر عنها من تفاعل إيجابى أو سلبى ، لأن قوانين المجتمع الصالحة لاعتناقها والسير على هداها كانت منذ البشرية الأولى تتعثر فى أذيال الإخفاق تارة ويكتب لها النجح نوعا ما تارة أخرى ، بما تستهدف له البشرية من تبدل فى الأطوار وتغير فى البرامج والأنماط ، تبعاً لتلك الأحداث الإملائية التى تفرضها الملابسات الملحة ، وترسم فى أفقها صورها مختلفة تقع على هـدى تلك الأحداث وفى ظلها .

ومن أجل ذلك كان الوجود فى افتقار مطرد الى الرسل والأنبياء ، والى المصلحين والعلماء ، والى القادة والزعماء ، لأن العقل البشرى بما اكتنفه من شهوات النفوس وما أحاط به من نزعات الآراء ، ليس بقادر وحده على أن يتبين فى جميع الأحوال الأخلاق المثالية ، أو الصور البـدائية التى ترسم فى لوحة هـذا الوجود سعادته الدائمة وعظمته الموافية ، فـكان إرسال الرسل ضرورة قضى بها ناموس الاجتماع ، فهو من هذه الناحية خاضع لوحى الضمائر النزيهة التى استمدت سعادتها وسؤددها من تعاليم وحى السماء ، ووحى السماء رسول الفطر ، وملاك الغرائز ، وقانون الطبائع ، وما الخير والشر بما ينـدرج تحت مدلولها إلا مجرد صور تتلاقى تحت الوجود وبين آفاقه المتباعـدة أو المتقاربة ، فاذا أفاض ذلك الوحى السماوى من الخير قسطا على بعض النفوس صيرها نفوسا ملائـكية تتراءى لها أوضاع الـكائنات فى صور مثالية ، وتصبغ آفاقها بصبغة الفضائل كلها ، فتخلص تلك النفوس من ظلمات الهيولى ويواجهها النور الإلهى فى ساحة القدسية الخالدة والسرمدية الدائمة ، والعكس بالعكس .

وما الخلاف الذى شجر بين فريق من علماء الأخلاق حين عرضوا لنظرية مشهورة وهى افتقار المجتمع الى الخير والشر ، إلا أثر من تلك الآثار التى شيد علماء الأخلاق عليها نظرياتهم ، فقد ذهب غير واحد منهم الى أن الخير والشر وما يقع فى مدلولها ملاك هذا المجتمع وعناده وقوته وزاده ، ورتبوا على ذلك الاتجاه أن إرشاد المرشد وهدى الهادى قائم على الفصل بين الأثرين للخير والشر ، لـكنه لا يستطيع أن يجحد أن النفوس المنفعلة بالخير ليس لها عن المزيد غنى ، وأن النفوس المنفعلة بالشر فى حاجة قصوى الى إرشاد المرشـد ، ينبهها الى مكمن دائها ويدل بها الى أسباب حتفها تبصرة وذكرى لقوم يعتبرون ، ومن هنا نشأت وظيفة الرسول والمرشد والعالم والواعظ ، فـكانت تلك الوظيفة أداة قضاء على الرذيلة وإشادة لمعالم الفضيلة .

فلوافترضنا أن العالم كله أمسى خيرا محضا أو شرا محضا ، لتزعزع نظام الكائنات ، وفسدت

الاتجاهات ، لأن الخير لا يعلم إلا بنقيضه ، ولأن ما فى أطواء الوجود ، لا يخلو من خير وشر ، فالخير ما كان فيه خير وإلى جانبه شر ، والشر ما كان فيه شر وإلى جانبه خير ، فليس ثمة خير محض ، ولا شر محض ، ولم تتمحض للخير إلا المبادئ السامية التى استمدت قوتها وجدتها ونماءها من وحى القرآن وآداب القرآن وتعاليم القرآن ، وبما ورد بألسنة الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

الحق أن الخير والشر متلازمان فى هذا المجتمع ، ولكل أعوان وخلان ، وأن وظيفة المرشد تستزيد من الخير عند الخيرين ، وتحاول اجتثاث عوامل الشر من النفوس الشريرة ، فالهداة قد بعثوا للخير والشر على فرق بينهما . قال حجة الإسلام الغزالى فى أخلاقياته : « ليس ما فى المجتمع من خير وشر إلا كان شغل العلماء والهداة والمرشدين ، فقد وضعوا للخير حدودا وأحكاما ، ونصبوا له مقاييس وأعلاما ، ثم وضعوا للشر فروقا وأحكاما » « فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة » . والكشف عن تفاريع ذلك مرتهن بالأعداد القادمة ، فإلى الغد القريب ؟

عباس طه

احياء ذكرى فقيد مصر العظيم

نظراً لما كان للفقيد العظيم (محمد محمود باشا) من الفضل العظيم فى المحافظة على الروح الدينية ، والأخلاق الاسلامية ، بانشاء قسم الوعظ والارشاد ، وتعميمه فى أرجاء البلاد .

نظرا لهذا ولما كان عليه الفقيد العظيم من صفات يحبها الدين ويحض عليها ويحث على إنمائها ، من عفة لسان ، وأدب خصومة ، وطهارة فى كل ناحية من نواحى الرجولة ، وبعد عن الدنايا ، وأمانة فى أموال الدولة .

نقول : نظرا لكل هذا وغيره ، جمع فضيلة شيخ معهد شبين الكوم حضرات المدرسين والطلاب عقب آخر حصة من يوم الثلاثاء ٤ فبراير سنة ١٩٤١ وألقى فيهم كلمة عن صفحات مجيدة من صفحات هذه الشخصية الخالدة ، وحضهم جميعا على أن يحيوا ذكراه العظيمة ، باحياء المبادئ السامية بين ذويهم وأصحابهم ، حتى يكون ذلك خير جزاء له على حسن ما قدم لدينه ووطنه ، فيعمه الله بفضله ، ويسبغ عليه واسع رحمته .

سكرتير المعهد

محمد الحسينى

في عالم المؤلفات الجديدة

الرد على سير الاوزاعى :

الأوزاعى إمام الشام فى القرن الثانى ، يروى عنه أنه لما اطلع على كتاب السير الصغير لمحمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة قال : « ما لأهل العراق والتصنيف فى هذا الباب ، فانه لاعلم لهم بالسير ، ومغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانت من جانب الشام والحجاز دون العراق فانها محدثة فتحا » . فرد عليه محمد بن الحسن بكتاب أسماه كتاب السير الكبير .

وصنف الاوزاعى كتابا رد فيه على سير الامام أبى حنيفة نفسه . فرد عليه صاحبه أبو يوسف بالكتاب الذى هو بين أيدينا الساعة . وقد كان نادر الوجود . فرأت لجنة إحياء المعارف بالهند أن تعنى بنشره ، فقام بتصحيحه والتعليق عليه فضيلة الأستاذ أبو الوفا الأفغانى رئيس لجنة إحياء المعارف ، وأشرف على طبعه بمصر فضيلة الأستاذ الشيخ رضوان محمد رضوان بالقاهرة . فنشكر للجنة إحياء المعارف عملها على نشر هذا الكتاب التاريخى القيم . ونرجو لها المزيد من التوفيق .

كتاب المسيح وأمه على ضوء العلم :

عالج مؤلف هذا الكتاب حضرة الدكتور الغيور ابراهيم محمد مرزوق موضوعا لم يطرقه أحد قبله ، وهو تفسير حدوث الحمل بعيسى عليه السلام بدون وساطة بشرية ، كما خلق آدم مباشرة من التراب . فقال فى آدم : إن حدوثه نشأ من أن الله خلق خلية أولية من التراب مباشرة ، فنمت على الأسلوب الذى تنمو به الخلايا فى عالم الطبيعة ، فتم تكوين آدم . وقال فى عيسى عليه السلام : إنه نشأ على هذا النحو ، ولكن ليس فى التراب ولكن فى أحشاء والدته مريم عليها السلام ، فقال : « إذا كان المراد إيجاد خلية تناسلية للغاية التى نحن بصددها ومن مادة ترابية ، فالأولى والأجدر اتخاذها من أم الخلايا ، من المبيض الذى تحمله مريم لمثل هذه الغاية ، وكانت النتيجة هى الرجوع للوضع الطبيعى من حيث نشأة عيسى من بويضة أم مريم الخ »

ولكن حضرة الدكتور لأجل أن يصل الى هذه النتيجة ، أفاض فى ذكر موضوعات علمية عالية ينكشف منها للقارئ ناحية مجهولة لأكثر الناس من نواحى علم التوالد ببيان شاف وتعبير شائق .

إننا نحض على وجوب قراءة هذا المؤلف لانه يسن أسلوبا جديدا لفهم آية من أكبر آيات التولد البشرى ، فإن فات القارئ الاقتناع بنظريته ، فلن يفوته الإلمام بالأصول العلمية الكثيرة التى استعان بها الدكتور لبناء مذهبه . فله منا الشكر الكثير والاعجاب الجم .

and hardship. Strong and steadfast must have been the motives which enabled him, amidst such opposition and apparent hopelessness of success to maintain his principles unshaken. No sooner was he released from this restraint than, despairing of his native city, he went forth solitary and unaided to At-Taif, and there summoned its rulers and inhabitants to repentance, with the message which he said he had from his Lord ; on the third day he was driven out of the town with ignominy, while blood flowed from wounds inflicted on him by the populace. Retiring to a little distance, he poured forth his complaint to God, and then returned to Mecca, there to resume the same outwardly hopeless cause, with the same high confidence in its ultimate success. We search in vain through the pages of profane history for a parallel to the struggle, in which for thirteen years the Prophet of Arabia, in the face of discouragement and threats, rejection and persecution, retained thus his faith unwavering, preached repentance, and denounced God's wrath against his godless fellow-citizens. Surrounded by a little band of faithful men and women, he met insults, menaces, and danger with a lofty and patient trust in the future. And when at last the promise of safety came from a distant quarter, he calmly waited until his followers had all departed, and then disappeared from amongst an ungrateful and rebellious people.

"Not less marked was the firm front and unchanging faith in eventual victory which at Medina bore him through seven years of mortal conflict with his native city ; and enabled him, sometimes even under defeat, and while his influence and authority were yet limited and precarious, even in the city of his adoption, to speak and to act in the constant and undoubted expectation of victory."

Denunciation of Polytheism and Idolatry : "From the earliest period of his religious convictions, the Unity, or the idea of One Great Being guiding with almighty power and wisdom all creation, and yet infinitely above it, gained a thorough possession of his mind. Polytheism and idolatry, at variance with this grand principle, were indignantly condemned, as levelling the Creator with the creature. On one occasion alone did Mohammad swerve from this position, when he admitted that the goddesses of Mecca might be adored as a medium of approach to God[1]. But the inconsistency was soon perceived ; and Mohammad at once retraced his steps. Never before, nor afterwards, did the Prophet deviate from the stern denunciation of idolatry."

---

(1) This is a great mistake on the part of the biographer caused by a misconception of the peculiar verse of the Koran which refers exclusively to the heathens' own conviction of the successful intercession of their idols. Qadi Ayad.

acknowledged the hand of God. A fixed persuasion that every incident, small and great, is ordained by the divine will, led to the strong expressions of predestination which abound in the Koran. It is the Lord Who turneth the hearts of mankind; and alike faith in the believer, and unbelief in the infidel, are the result of the divine fiat. The hour and place of everyman's death, as all other events in his life, are established by the same decree; and the timid believer might in vain seek to avert the stroke by shunning the field of battle. But this persuasion was far removed from the belief in a blind and inexorable fate; for Mohammad held the progress of events in the divine hand to be amenable to the influence of prayer. He was not slow to attribute the conversion of a scoffer, like Omar, or the removal of an impending misfortune (as the deliverance of Medina from the Confederate hosts), to the effect of his own earnest petitions to the Lord."

Unwavering Steadfastness at Mecca: "The growth in the mind of Mohammad of the conviction, that he was appointed to be the Prophet and Reformer, is intimately connected with his belief in a special Providence embracing the spiritual as well as material world; and out of that conviction arose the confidence that the Almighty would crown his mission with success. While still at Mecca, there is no reason to doubt that the questionings and aspirations of his inner soul were regarded by him as proceeding directly from God. The light which gradually illuminated his mind with a knowledge of the divine unity and perfections, and of the duties and destiny of man,—light amidst gross darkness,—must have emanated from the same source; and He Who in His own good pleasure had thus begun the work, would surely carry it through to a successful ending. What was Mohammad himself, but an instrument in the hand of the Great Worker? Such, no doubt, were the thoughts which strengthened him, alone and unsupported, to brave for many weary years, the taunts and persecutions of a whole people. In estimating the signal moral courage, thus displayed, it must not be overlooked that for what is ordinarily termed physical courage Mohammad was not remarkable.

"It may be doubted whether he ever engaged personally in active conflict on the battle fields. Though he often accompanied his forces, he never himself led them into action, or exposed his person to avoidable danger. And there were occasions, on which he showed symptoms of a faint heart. Yet even so, it only brings out in higher relief, the singular display of moral daring. Let us for a moment look to the period when a ban was proclaimed at Mecca against all citizens, whether professed converts or not, who espoused his cause or ventured to protect him; and when along with these, he was shut up in the 'Shi'b' or quarter of Abu Talib, and these for three years, without prospect or relief, endured want

Obaida, son of Harith, fell a martyr at Badr, and his widow Zainab, daughter of Khuzaima, was taken in marriage by the Prophet in the same year. In the next year, Abu Salma died, and his widow Um-i-Salma was taken to wife by the Prophet. As Christian criticism lays too much stress upon the Holy Prophet's marriage with Zainab daughter of Jahsh, a full explanation of the events in connection with this marriage is necessary :

Zainab was the daughter of the Prophet's own aunt; she was one of the early converts to Islam, and the Holy Prophet proposed to her brother that she should be given in marriage to Zaid, his adopted son and freedman. Both brother and sister were averse to this match and only yielded under pressure from the Holy Prophet. It is related, that they both desired that the Holy Prophet himself should marry Zainab(1), but the Prophet insisted that she should accept Zaid.

The marriage was, however, not a happy one. Zainab was harsh of temper, and she never liked Zaid, on account of the stigma of slavery which attached to his name. Differences arose, and Zaid expressed a desire to the Holy Prophet of divorcing Zainab. The news was grievous to the Prophet, for it was he who had insisted upon the marriage, and he therefore advised Zaid not to divorce her. He feared that people would object, that a marriage which had been arranged by the Prophet, was unsuccessful. It is to this circumstance, that the verse in the Koran 37 : XXII refers : "And, you feared men, and God had a greater right that you should fear Him(2)."

Let us now revert to Sir William Muir's views of the character of the Prophet.

Conviction of Special Providence : "Proceeding now to consider the religious and prophetical character of Mohommad, the first point which strikes the biographer is his constant and vivid sense of a special and all-pervading Providence. This conviction moulded his thoughts and designs, from the minutest actions in private and social life to the grand conception, that he was destined to be the Reformer of his people and of all Arabia. He never entered a company but he sat down and rose up with the mention of the Lord. When the first-fruits of the season were brought to him, he would kiss them, place them upon his eyes and say : 'Lord, as Thou hast shown us the first, show unto us likewise the last.' In trouble and affliction, as well as in prosperity and joy, he ever saw and humbly

(1) Al Razi ; Abul Fida ; Ibn Athir & c.

(2) On the other hand, an end had to be put to the old custom of the Arabs' condemning a man's marriage with a woman who was once wedded to his adopted son. Hence, Koran's verse.

faithful husband to her alone. It is obviously absurd, to think that a man whose character was such, could have any 'range of uxorious inclinations.'

Sir William Muir asserts, that "it was not until the mature age of fifty-four, that the Prophet made the 'trials' of Polygamy." It is obviously a contradiction, unworthy of a fair and impartial critic, to think for a moment that at such an advanced age, a man who had 'lived in his youth a virtuous life,' and who, 'at the age of twenty five, married a widow, forty years old, during whose life-time, for five and twenty years, he was a faithful husband to her alone,' should have sexual inclinations. To any really impartial biographer and also to any thoughtful reader, this is quite impossible.

But the marriages of the Holy Prophet have furnished his critics with their chief weapons of attack, and the interested missionary has gone so far as to call him a voluptuary, although some of his own revered spiritual leaders and prophets were chronicled to possess even as many as a few hundred wives(1). For this reason I give here a few particulars regarding the Prophet's marriages.

His first marriage was contracted when he was twenty five years of age, and the widow, Khadija, whom he married was forty years old, that is fifteen years his senior. It was with her and her alone, that he passed all the years of his youth and manhood, until she died three years before the Hijra, or emigration to Medina, when he was already an old man of fifty. This circumstance alone is sufficient to give the lie to those who would belittle him and call him a voluptuary. After her death, while still at Mecca, he married Sauda and Ayesha, the latter of whom was his only virgin wife, and she was the daughter of his intimate and illustrious friend and helper Abu Bakr. Then followed the emigration to Medina, and subsequent to the emigration, he had to fight many battles with his enemies, the Koreish, or such tribes as sided with the Koreish and persecuted the Moslems. The result of these battles, was a great discrepancy between the number of males and females, and as his favourite followers fell in the field of battle, fighting his enemies, the care of their families devolved upon the Prophet and his surviving companions. In the battle of Badr fell Khunais, son of Huzafa, and the faithful Omar's daughter Hafsa was left a widow. Omar offered her to Othman and Abu Bakr in turn, and she was at last married to the Holy Prophet in the third year of the Hijra.

---

(1) David had six wives and numerous concubines, (2 Sam. v. 13. 1 Chron, iii 1-9 ; xiv 3) Solomon had as many as 700 wives and as many as 300 concubines, (Kings xi : 3) Rehoboams had 18 wives and sixty concubines (2 Chrou, xi 21)

space in refuting the numerous mis-representations made by hostile biographers. However, as one instance of the false charge of cruelty, brought against the Prophet or his followers without foundation, I quote a statement on the subject by Mr. George Sale :— "Dr. Prideaux, speaking of Mohammed's obliging those of Al Nadir to quit their settlements, says that a party of his men pursued those who fled into Syria, and having overtaken them, put them all to the sword, excepting only one man that escaped. 'With such cruelty,' continues he, 'did those barbarians first set up to fight for that imposture they had been deluded into(1).' But a learned gentleman has already observed, that this is all grounded on a mistake which the doctor was led into by an imperfection in the printed edition of Elmacinas ; where, after mention of the expulsion of the Nadirites, are inserted some incoherent words, relating to another action which happened the month before, and wherein seventy Moslems, instead of putting others to the sword, were surprised and put to the sword themselves, together with their leader Al Mondar Ebn Omar, Caab Ebn Zeid alone escaping. (Vide Gagnier, not. in Abulf. Vit. Moh. p. 72)(2)."

Sir William Muir continues his remarks on the person and character of the Prophet as follows :—

Domestic Life : "In domestic life, the conduct of Mohammad was exemplary. As a husband his fondness and devotion were entire. As a father he was loving and tender. In his youth, he lived a virtuous life ; and at the age of twenty-five he married a widow, forty years old, during whose lifetime, for five and twenty years, he was a faithful husband to her alone. Yet it is remarkable that during this period were composed most of those passages of the Koran, in which the black eyed 'Houries' reserved for Believers in Paradise, are depicted in such glowing colours."

Sir William Muir, following the example of other Christian writers, has attributed the Prophet's polygamy to 'unchecked range of his uxorious inclinations,' and when veiwing the social and domestic life of Mohammad, 'fairly and impartially,' he saw it to be chequered by light and shade ; and that, "while there is much to form the subject of nearly 'unqualified' praise, there is likewise much which cannot be spoken of but in terms of reprobation."

Sir William Muir himself, as quoted above, states that in his youth the Prophet lived a virtuous life ; and at the age of twenty five married a widow, forty years old, *during whose life-time, for five and twenty years, he was a*

---

(1) Prid. Life of Mah. p. 82.

(2) G. Sale, Trans. of Al Koran P. 405, Fred Warne & Co.

with others; and was sedulously solicitous for the personal comfort of every one about him. A kindly and benevolent disposition pervades all these illustrations of his character."

Friendship : "Mohammad was also a faithful friend. He loved Abu Bakr with the close affection of a brother; Ali, with the fond partiality of a father. Zaid, the Christian slave of his wife Khadija, was so strongly won by the kindness of the Prophet, that he preferred to remain at Mecca, rather than return home with his own father: 'I will not leave thee,' he said, clinging to his patron, 'for thou hast been a father and a mother to me.' The friendship of Mohammad survived the death of Zaid, and his son Osama was treated by him with distinguished favour for the father's sake. Othman and Omar were also the objects of his special attachment; and the enthusiasm, with which at Al Hodeibiya, the Prophet entered into 'the Pledge of the Tree', and swore that he would defend his beleaguered son-in-law even to the death, was a signal proof of faithful friendship. Numerous other instances of Mohammad's ardent and unwavering regard might be adduced. And his affections were in no instance misplaced; they were ever reciprocated by a warm and self-sacrificing love."

Moderation and Magnanimity : "In the exercise of a power absolutely dictatorial, Mohammad was just and temperate Nor was he wanting in moderation towards his enemies, when once they had cheerfully submitted to his claims. The long and obstinate struggle against his mission, maintained by the inhabitants of Mecca, might have induced its conqueror to mark his indignation in indelible traces of fire and blood. But Mohammad, excepting a few criminals, granted a universal pardon; and, nobly casting into oblivion the memory of the past, with all its mockery, its affronts and persecution, treated even the foremost of his opponents with gracious and even friendly consideration. Not less marked was the forbearance shown to Abdallah and the disaffected citizens of Medina, who for so many years persistently thwarted his designs and resisted his authority, nor the clemency, with which he received the submissive advances of tribes that before had been the most hostile, even in the hour of victory[1]."

Some Christian biographers of the Prophet dwell too much on what they termed his cruelty towards his enemies. Honestly speaking, cruelty was nowhere shown in the conduct of the Prophet, as the reader will have observed in his Life, as given in this book.

It is not the intention of the author of this book to occupy too much

(1) Vide Sir William Muir's "The Life of Mohammad."

Simplicity of his Life : "A patriarchal simplicity pervaded his life. His custom was to do everything for himself. If he gave an alms, he would place it with his own hand in that of the petitioner. He aided his wives in the household duties, mended his clothes, tied up the goats, and even cobbled his sandals. His ordinary dress was of plain hhite cotton stuff, made like his neighbours ; but on high and festive occasions he wore garments of fine linen, striped or dyed in red. He never reclined at meals. He ate with his fingers ; and when he had finished, he would lick them before he wiped his hands. He lived with his wives in a row of low and homely cottages, built of unbaked bricks, the apartments separated by walls of palm-branches, rudely daubed with mud, while curtains of leather, or of black haircloth, supplied the place of doors and windows. He was to all easy of access,—'even as the river's bank to him that draweth water from it'—yet he maintained the state and dignity of real power. No approach was suffered to familiarity of action or speech. The Prophet must be addressed in subdued accents and in a reverential style. His word was absolute ; his bidding law. Embassies and deputations were received with the utmost courtesy and consideration. In the issue of rescripts, bearing on their representations, or in other matters of state, the Prophet displayed all the qualifications of an able and experienced ruler, as the reader(1) will have observed from the numerous examples given. And what renders this the more strange, is that he was never known himself to write."

Urbanity and Kindness of Disposition : "A remarkable feature was the urbanity and consideration, with which Mohammad treated even the most insignificant of his followers. Modesty and kindliness, patience, self-denial and generosity pervaded his conduct and rivetted the affections of all around him. He disliked to say No. If unable to answer a petitioner in the affirmative, he preferred silence. 'He was more bashful,' says his wife Ayesha, 'than a veiled virgin ; and if anything displeased him, it was rather from his face, than by his words, that we discovered it ; he never smote anyone, but in the service of God, not even a woman or a servant.' He was not known ever to refuse an invitation to the house even of the meanest, nor to decline a proffered present, however small. When seated by a friend, 'he did not haughtily advance his knees towards him.' He possessed the rare faculty of making each individual in a company think that he was the favoured guest. If he met any one rejoicing at success, he would seize him eagerly and cordially by the hand. With the bereaved and afflicted, he sympathised tenderly. Gentle and indulgent towards little children, he would not disdain to accost a group of them at play, with the salutation of peace. He shared his food, even in time of scarcity,

(1) i. e. the reader of Sir Wm. Muir's 'Life of Mohammad'.

power of working miracles. Whatever he had said he could do, his disciples would straightway have seen him do. They could not help attributing to him miraculous acts which he never did, and which he always denied he could do. What more crowning proof of his sincerity is needed? Mohammed to the end of his life claimed for himself that title only, with which he had begun, and which the highest philosophy and the truest Christianity will one day, I venture to believe, agree in yielding to him, that of a Prophet, a very Prophet of God(1)."

VIII
The Person and Character of the Prophet Mohammad

It is only right that, before bringing the biography of the Prophet to a conclusion, I should give illustration of his chief traits and character, as already brought to light and passed as authentic by distinguished European critics.

Sir William Muir writes(2).

Personal Appearance and Gait (of the Prophet) : "His form, though little above mean height, was stately and commanding. The depth of feeling in his dark black eyes and the winning expression of a face otherwise attractive, gained the confidence and love of strangers, even at the first sight. His features often unbended into a smile full of grace and condescension. 'He was' say his contemporary biographers, 'the handsomest and bravest, the brightest faced and most generous of men.' Yet when anger kindled in his piercing glance, the object of his displeasure might well quail before it. His stern frown was an augury of death to many a trembling captive. In later years, the erect figure began to stoop; but the step was still firm and quick. His gait has been likened to that of one descending rapidly a hill. When he made haste, it was with difficulty that one kept pace with him. He never turned, even if his mantle caught in a thorny bush, so that his attendants talked and laughed freely behind him, secure of being unobserved."

His Habits : "Thorough and complete in all his actions, he took in hand no work without bringing it to a close. The same habit pervaded his manner in social intercourse. If he turned in conversation towards a friend, he turned not partially, but with his full face and his whole body. In shaking hands he was not the first to withdraw his own; nor was he the first to break off in converse with a stranger, nor to turn away his ear."

---

(1) Vide 'Mohammed and Mohammedanism' by Bosworth Smith, p. 340.

(2) Vide 'The Life of Mohammad' by Sir Wm. Muir.

Mr. Bosworth Smith, apparently an uprejudiced English historian in his "Mohammed and Mohammedanism" comments as follows :—

"Mohammed did not, indeed, himself weld together into a homogeneous whole a vast system of states like Charles the Great. He was not a philosophic king, like Marcus Aurelius, nor philosopher, like Aristotle, or like Bacon, ruling by pure reason the world of thought for centuries with a more than kingly power; he was not a legislator for all mankind, nor even the highest part of it, like Justinian; nor did he cheaply earn the title of the Great by being the first among rulers to turn, like Constantine, from the setting to the rising sun. He was not a philanthropist, like the Greatest of the Stoics.

"Nor was he the apostle of the highest form of religion and civilisation combined, like Gregory or Boniface, like Leo or Alfred the Great He was less, indeed, than most of these in one or two of the elements that go to make up human greatness, but he was also greater. Half Christian and half Pagan, half civilisd and half barbarian, it was given to him in a marvellous degree to unite the peculiar excellences of the one with the peculiar excellences of the other. 'I have seen,' said the ambassador sent to the triumphant Quoraish at the despised exile at Medina 'I have seen the Persian Chosroes and the Greek Heraclius sitting upon their thrones; but never did I see a man ruling his equals as does Mohammed.'

"Head of the state as well as of the Church, he was Caesar and Pope in one; but he was Pope without the Pope's pretensions, Caesar without the legions of Caesar. Without a standing army, without a fixed revenue; if ever any man had the right to say that he ruled by a right divine, it was Mohammed, for he had all the powers without its instruments, and without its supports . . . .

. . . .

"By a fortune absolutely unique in history, Mohammed is a threefold founder of a nation, of an empire, and of a religion. Illiterate himself, scarcely able to read or write, (1) he was yet the author of a book which is a poem, a code of laws, a Book of Common Prayer, and a bible in one, and is reverenced to this day by a sixth of the whole of the human race, as a miracle of purity of style, of wisdom and of truth. It was the one miracle claimed by Mohammed — his standing miracle he called it, and a miracle indeed it is. But looking at the circumstances of the time, at the unbounded reverence of his followers, and comparing him with the fathers of the church or with mediaevel saints, to my mind the most miraculous thing about Mohammed is, that he never claimed the

(1) All trustworthy commentators aud Moslem Historians agree in that the Prophet Mohammad was absolutely illiterate. He could never read or write. (Cf. Ibn Athir; Ibn Hisham Al Wakidi; G. Sale; Sir. Wm. Muir; The Koran)

can possibly be written by the pen of a European historian. In his lecture " The Hero as Prophet, " Thomas Carlyle writes: " Mohamet himself, after all that can be said about him, was not a sensual man. We shall err widely if we consider this man as a common voluptuary, intent mainly on base enjoyments — nay, on enjoyments of any kind. His household was of the frugalest, his common diet barley-bread and water; sometimes for months there was not a fire once lighted on his hearth. They record with just pride that he would mend his own shoes, patch his own cloak. A poor hard-toiling, ill-provided man; careless of what vulgar men toil for. Not a bad man I should say; something better in him than hunger of any sort; or these wild Arab men fighting and jostling three-and-twenty years at his hand, in close contact with him always, would not have reverenced him so. These were wild men, bursting ever and anon into quarrel, into all kinds of fierce sincerity; without right, worth and manhood, no man could have commanded them. They called him Prophet, you say? Why he stood there face to face with them; bare, not enshrined in any mystery, visibly clouting his own cloak, cobbling his own shoes, fighting, counselling, ordering in the midst of them, they must have seen what kind of a man he was, let him be called what ye like. No emperor with his tiaras was obeyed as this man in a cloak of his own clouting. During three and twenty years of rough actual trial, I find something of a veritabe hero necessary for that of itself.

"His last words are a prayer, broken ejaculations of a heart struggling-up in trembling hope towards its Maker. We cannot say that his religion made him worse; it made him better; good not bad. Generous things are recorded of him: when he lost his daughter, the thing he answers is, in his own dialect everyway sincere, and yet equivalent that to that of Christians, 'The Lord giveth and the Lord taketh away; blessed be the name of the Lord.' He answered in like manner of Zaid, his emancipated well-beloved slave, the second of the believers. Zaid had fallen in the war of Tabûc, the first of Mahomet's fighting against the Greeks. Mahomet said, it was well; Zaid had done his Master's work, Zaid had now gone to his Master: it was all well with Zaid. Yet Zaid's daughter found him weeping over the body; — the old greyhaired man melting in tears! 'What do I see?' said she. 'You see a friend weeping over his friend.' He went out for the last time into the mosque two days before his death; asked, if he had injured any man? Let his own back bear the stripes. If he owed any man? A voice answered: 'Yes me three drachms borrowed on such an occasion.' Mahomet ordered them to be paid. 'Better be in shame now', said he, 'than at the day of judgment.' You remember Khadijah and the 'No, by Allah!' Traits of this kind show us the genuine man, the brother of us all, brought visible through twelve centuries, the veritable Son of our common Mother." (1)

(1) Lectures on Heroes by Thomas Carlyle, p. 66.

made lawful; nor have I prohibited aught, but that which God in His Book hath prohibited." Then turning to to the women who sat close by, he exclaimed: "O Fatima, my daughter, and Safia, my aunt, Work ye both that which shall procure you acceptance with the Lord; for verily I have no power to save you in any wise." He then rose and re-entered the house of Ayesha. (1) After this, the Prophet never appeared at public prayers. A few hours after he returned from the mosque, the Prophet died whilst laying his head on the bosom of Ayesha. As soon as the Prophet's death was announced a crowd of people gathered at the door of the house of Ayesha, exclaiming, " How can our apostle be dead?" " No," said Omar, " he is not dead, he will be restored to us, and those are traitors to the cause of Islam who say he is dead. If they say so let them be cut in pieces." But Abu Bakr entered the house at this moment, and after he had touched the body of the Prophet with demonstration of profound affection, he appeared at the door and addressed the crowd with the following speech: " O Moslems, if any of you has been worshipping Mohammad, then let me tell you that Mohammad is dead. But if you really do worship God, then know you that God is living and will never die. Do you forget the verse in the Koran: 'Mohammad is but an apostle, before whom other apostles have already passed?' and also the other verse: 'Thou shalt surely die (O Mohammad) and they also shall die?' Upon hearing this speech of Abu Bakr, Omar acknowledged his error and the crowd was satisfied and dispersed.

Al Abbas, the Prophet's uncle, presided at the preparation for the burial, and the body was duly washed and perfumed. There was some dispute between the Koreishites and the Ansars as to the place of burial; but Abu Bakr settled the dispute by affirming that he had heard the Prophet say, that a prophet should be buried at the very spot where he died. A grave was accordingly dug in the ground within the house of Ayesha, and under the bed on which the Prophet died. In this grave the body was buried, and the usual rites were performed by those who were present.

Thus the glorious life of the Prophet Mohammad ended. The Arabs, being then united in one faith and under one banner and one prince, found themselves in a position to make those conquests which extended the Mohammadan faith over so great a part of the world. (2)

The following comment on the Prophet's life by Thomas Carlyle, will be found to be as true a picture of Mohammad's character as

---

(1) Ibn Hislam: Al Wakidy; Ibn Athir.

(2) G. Sale in his Preliminary Discourse to his translation of the Koran.

He soon succeeded in gaining over his tribesmen, and with their help reduced to subjection many of the neighbouring towns. He killed Shahr whom the Prophet had appointed as Governor of Sana in the place of his father, Bazan who had just died. Bazan had been the viceroy of Yemen, under Chosroes of Persia, and after he had adopted Islam, was allowed by the Prophet to remain as Governor of Yemen. He was able to convert to Islam all the Persian colony in that province. Al Aswad, the conjurer, had now killed Shahr, but soon after, he was massacred by the Persians of Yemen. The other two pretenders, Tulayha and Haroun by name, were not suppressed until after the death of the Prophet, during the reign of Abu Bakr. Haroun, better known as Mussaylamah, addressed to the Prophet a letter which ran as follows: "From Mussaylamah, the Prophet of God to Mohammad the Prophet of God. Peace be to you. I am your partner. Let the exercise of authority be divided between us. Half the earth will be mine, and half will belong to your Koreish. But the Koreishites are too greedy to be satisfied with a just division." To this letter the Prophet replied as follows: "From Mohammad, the Apostle of God, to Mussaylamah, the liar. Peace be to those who follow the right path. The earth belongs to God. It is He Who maketh to reign whomsoever He pleaseth. Only those will prosper who fear the Lord."

The health of the Prophet grew worse. His last days were remarkable for the calmness and serenity of his mind. He was able, though weak and feeble, to lead the public prayers, until within three days of his death. He requested that he might be permitted to stay at Ayesha's house, close to the mosque, during his illness, an arrangement to which his other wives assented. As long as his strength lasted, he took part in the public prayers. The last time he appeared in the mosque, he addressed the congregation, after the usual prayers were over in the following words: "O Moslems, if I have wronged anyone of you, here I am to answer for it; if I owe aught to anyone, all I may happen to possess belongs to you." A man in the crowd rose and claimed three dirhams which he had given to a poor man at the request of the Prophet. They were immediately paid back with these words: "Better to blush in this world than in the next." The Prophet then prayed and implored God's mercy for those who had fallen in the persecution of their enemies. He recommended to all his followers the observance of religious duties and the leading of a life of peace and good-will. He concluded his advice with the following verse of the Koran: "The future mansion (of paradise) We will give unto them who do not seek to exalt themselves on earth or to do wrong; for a happy issue shall attend the pious." Then he spoke with emotion, and with a voice still so powerful as to reach beyond the outer doors of the mosque: "By the Lord in Whose hand lies the soul of Mohammad," he said, "as to myself no man can lay hold on me in any matter; I have not made lawful anything excepting what God hath

ye appear before the Lord, as this day and this month is sacred for all; and remember, ye shall have to appear before your Lord Who shall demand from you an account for all your actions. Ye people, Ye have rights over your wives, and your wives have rights over you.... Verily ye have taken them on the security of God and have made their persons lawful unto you by the words of God. And your slaves, see that ye feed them with such food as ye eat yourselves, and clothe them with the stuff ye wear, and if they commit a fault which ye are not inclined to forgive, then part with them ; for they are the servants of the Lord and are not to be harshly treated. Ye people, Listen to my words and understand them. Know that all Moslems are brothers. Ye are one brotherhood; but no man shall take aught from his brother, unless by his free consent. Keep yourselves from injustice. Let him who is present tell this to him who is absent. It may be, that he who is told this afterward may remember better than he who has now heard it."

The Prophet concluded his sermon by exclaiming, "O Lord, I have fulfilled my message and accomplished my work." The assembled multitude all in one voice cried, "Yea, verily thou hast." The Prophet again exclaimed, "O Lord, I beseach Thee, bear witness unto it."

Having rigorously performed all the ceremonies of the pilgrimage, that his example might be followed by all Moslems for all succeeding ages, the Prophet returned with his followers to Medina.

The eleventh year of the Hijra, being the last year of Mohammad's life, was spent at Medina. There he settled the organisation of the provincial and tribal communities which had adopted Islam and become the component parts of the Moslem federation. More officers had to be deputed to the interior provinces for the purpose of teaching their inhabitants the precepts of the religion, administering justice, and collecting tithes. Muaz-Ibn-Jabal was sent to Yemen. On his departure to that distant province the Prophet enjoined him to use his own discretion, in the event of his being unable to find express authority in the Koran. Ali was deputed to Yamama in the south-east of the Peninsula. To him the Prophet said: "Never decide between any two parties who come to you for justice unless you first hear both of them."

A force was now being prepared under Osama, the son of Zaid, who was killed at Muta, against the Byzantines, to exact the long delayed reparation for the murder of the envoy in Syria, when the news of the Prophet's sickness and failing health caused that expedition to be stopped. This news was soon noised abroad and produced disorder in some districts. Three pretenders had arisen who gave themselves out as prophets, and tried by all kinds of imposture to win over their tribes. The most dangerous of these pretenders was known as Al Aswad. He was a chief of Yemen and a man of great wealth and sagacity, and a clever conjurer.

turned to their homes and before the following year was over the majority of them were Moslems.

During the tenth year of the Hijra as in the preceding one, numerous embassies continued to pour into Medina from all parts of Arabia, to testify to the adhesion of their chiefs and their tribes. Teachers were sent by the Prophet into the different provinces to teach the new converts the principles and precepts of Islam. These teachers were invariably given the following injunctions when they were about to depart on their mission: " Deal gently with the people, and be not harsh; cheer them, and do not look down upon them with contempt. Ye will meet with many believers in the Holy Scriptures, (1) who will ask you ' What is the key to heaven?' Answer them that it (the key to heaven) is to bear witness to the Divine truth and to do good. " (2)

Thus, the mission of the Prophet Mohammad was now accomplished; the whole work was achieved in his lifetime. Idolatry with its nameless abominations was entirely destroyed. The people who were sunk in superstition, cruelty and vice, in regions where spiritual life was utterly unknown, were now united in one bond of faith, hope and charity. The tribes which had been, from time immemorial, engaged in perpetual wars were now united together by the ties of brotherhood, love and harmony. Henceforth, their aims are not confined to this earth alone; but there is something beyond the grave — much higher, purer and diviner — calling them to the practice of charity, goodness, justice and universal love. They could now perceive that God was not that which they had carved out of wood or stone, but the Almighty, Loving, Merciful the Creator of the Universe.

On the return of the sacred month of the pilgrimage, the Prophet, under the presentiment of his approaching end, determined to make a farewell pilgrimage to Mecca. In February 632, he left Medina with a very considerable concourse of Moslems. It is stated that from 90,000 to 140,000 persons accompanied the Prophet. (3) On his arrival at the holy places, from which every trace of the old superstition had been removed, and which in accordance with his orders of the previous year, no idolater was to visit unless he assumed the pilgrim garb. Before completing all rites of the pilgrimage, he addressed the assembled multitude from the top of the Mount Arafat, in the following words: " Ye people! Listen to my words, for I know not whether another year will be vouchsafed to me after this year to find myself amongst you. Your lives and property are sacred and inviolable amongst one another until

(1) i.e. Jews or Christians.
(2) Ibn Hisham.
(3) Ibn Hisham, Ibn Athir Vol. II.

Arabs for its idolatrous priesthood. A small detachement under Ali was sent to reduce them to obedience and to destroy their idols. The prince of the tribe was Adi, the son of the famous Hatim, whose generosity was spoken of all over the peninsula of Arabia. On the approach of the Moslem force, Adi fled to Syria, leaving his sister with some of his principal clansmen, to fall into the hands of the Moslems. These were conducted by Ali with every sign of respect and sympathy to Medina. When the daughter of Hatim came before the Prophet she addressed him in the following words: " Apostle of God, my father is dead; my brother, my only relation has fled into the mountains, on the approach of the Moslems. I cannot ransom myself; I count on your generosity for my deliverance. My father was an illustrious man, the prince of his tribe, a man who ransomed prisoners, protected the honour of women, fed the poor, consoled the afflicted and was deaf to no appeal." "Thy father," answered the Prophet, "had the virtues of a true Moslem; if it were permitted to invoke the Mercy of God on any whose life was passed in idolatry, I would pray to God for mercy for the soul of Hatim." Then, addressing the Moslems around him, he said: "The daughter of Hatim is free, her father was a generous and humane man; God loves and rewards the merciful." With the daughter of Hatim, all her people were set at liberty. She proceeded to Syria, and related to her brother the generosity of Mohammad. Adi, touched by gratitude, hastened to Medina where he was kindly received by the Prophet. He professed Islam and returned to his people, and persuaded them to abandon idolatry. They all submitted and became devoted Moslems. (1)

Hitherto no prohibition had been enforced against idolaters entering the Holy Kaaba or performing their abominable rites within the sacred precincts. Towards the end of the ninth year of the Hijra, during the month of pilgrimage Ali was delegated by the Prophet to read a Proclamation that ran as follows: "No idolater shall after this year perform the pilgrimage; no one shall make the circuit of the temple naked (such a disgraceful custom was practiced by the heathen Arabs), any treaty with the Prophet shall continue in force, but four months are allowed to every man to return to his territories; after that there will be no obligation on the Prophet, except towards those with whom treaties have been concluded. (2)

The vast multitude who had listened to the above declaration re-

---

(1) Cf. Ibn Hisnam; Ibn Athir Vol. II., Tabari Vol. II., Amir Sayed Aly; Suirit of Islam.

(2) Abul Feda; Ibn Athir; Ibn Hisham.

him to set free their families. The Prophet replied that he was willing to give back his own share of the captives and that of the children of Abdul Muttalib, but that he could not force his followers to abandon the fruits of their victory. The disciples followed the generous example of their teacher and about six thousand people were in a moment set free.(1) The spirit of liberty influenced the hearts of several members of the Thaqif tribe who offered their allegiance and soon became earnest Moslems.

The Prophet now returned to Medina fully satisfied with the achievements of his mission.

The ninth year of the Hijra is known as the year of embassies, as being the year in which the various tribes of Arabia submitted to the claim of the Prophet and sent embassies to render homage to him. Hitherto the Arabs had been awaiting the issue of the war between Mohammad and the Koreishites; but as soon as that tribe — the principal of the whole nation, and the descendants of Ismail, whose prerogatives none offered to dispute — had submitted, they were satisfied that it was not in their power to oppose Mohammad. (2) Hence their embassies flocked into Medina to make their submission to him. The conquest of Mecca decided the fate of idolatry in Arabia. Now deputations began to arrive from all sides to render the adherence to Islam of various tribes. Among the rest, five Princes of the tribe of Himyar professed Islam and sent ambassadors to notify the same. These were the Princes of Yemen, Mahra, Oman and Yamama.(3)

The idolaters of Tayef, the very people who had driven the Preacher of Islam from their midst with violence and contempt now sent a deputation to pray forgiveness and ask to be numbered amongst his followers. They begged however, for temporary preservation of their idols. As a last appeal they begged for one month's grace only. But this even was not conceded. The Prophet said Islam and the idols could not exist together. They then begged for exemption from the daily prayers. The Prophet replied that without devotion religion would be nothing. At last they submitted to all that was required of them. They, however, asked to be exempted from destroying the idols with their own hands. This was granted. The Prophet selected Abu Sufian and Mughira to destroy the idols of the Tayefites, the chief of which being the notorious idol of Al Lat. This was carried out amidst cries of despair and grief from the women of Tayef.

The conversion of this tribe of Tayef is worthy of notice. This tribe which hitherto had proved hostile to the new faith was noted among the

(1) Cf. Tabari, Vol. III; Ibn Hisham; Ibn el Athir, Vol. II.

(2) G. Sale, Introd. to Koran.

(3) Cf. Abul Feda, G. Sale; Intro. to Koran.